جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

وسائل الترفيه في العصر الأيوبي بمصر والشام
(مجالس الغناء والموسيقى نموذجاً)
٥٦٧ – ٦٤٨هـ / ١١٧١ – ١٢٥٠م

إعداد

د. عبد الهادي محمد حمدان سيد
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
بكلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الواحد والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠ أكتوبر)
(الجزء الثاني(١٤٤٤هـ /٢٠٢٢م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٢/٦٢٧١م

وسائل الترفيه في العصر الأيوبي بمصر والشام
(مجالس الغناء والموسيقى نموذجًا)
٥٦٧ـ٦٤٨هـ / ١١٧١ـ١٢٥٠م

عبدالهادي محمد حمدان

قسم التاريخ والحضارة . كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط . مصر .

البريد الإلكتروني: abdelhadysayed.47@azhar.edu.eg

ملخص

تعددت الدراسات والبحوث التي كتبت عن الدولة الأيوبية في مجالاتها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، غير أنها أغفلت بعض النواحي في الجانب الحضاري، فهذه الدراسات على كثرتها لا تكاد تذكر شيئًا عن وسائل الترفيه في هذا العصر، وكأنه خلا من هذه الممارسات الترويحية رغم كثرتها وتنوعها، وشغف سلاطين بني أيوب وفئات المجتمع المصري والشامي بها، وكأن الحياة فيه أصبحت مجدبةً كل الجدب وخشنةً كل الخشونة، مع أن الواقع وما جاء في المصادر التي أرخت للدولة الأيوبية يؤكد وجود العديد من وسائل التسلية والترويح، ومن هذه الوسائل مجالس الغناء والموسيقى، الذي تحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء عليه، وهو جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية في مصر والشام يكشف عن وجه آخر من وجوه أهل السلطة، ويظهر جانبًا من تاريخ الدولة الأيوبية لم يحظ بنصيب يليق به من الدراسة والبحث، وقد سلط البحث الضوء على هذا الجانب ممهدًا لذلك بالحديث عن الغناء ومجالسه قبيل العصر الأيوبي، ثم تطرق للحديث عن موضوع البحث، وذلك من خلال الحديث عن أحوال الغناء والموسيقى في العصر الأيوبي، وموقف صلاح الدين من

الغناء، ومجالس الغناء في عهده، واهتمام بعض خلفائه من سلاطين بني أيوب بالغناء ومجالسه وتقريبهم للمغنين والمغنيات، كما تناول اهتمام الأمراء والأعيان بمجالس الغناء والموسيقى، وتحدث عن إقبال الأدباء على سماع الغناء في مجالسهم الخاصة ومآدبهم، وعن إقبال العامة في مصر والشام على سماع الغناء وحضور مجالسه، وأخيرا ترجم البحث لمشاهير أرباب الغناء والموسيقى في هذا العصر، ثم أعقب ذلك بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها، وثبت للمصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها، تناول البحث كل هذه الجوانب وكشف عنها، معتمدًا في ذلك على مصادر تاريخية وأدبية معاصرة وموثوقة .

الكلمات المفتاحية : مجالس . الغناء . الموسيقى . مصر . الشام . الأيوبي .

Entertainment means in the Ayyubid era in Egypt and the Levant

(singing and Music councils as a model)

(AH / 1171 – 1250 AD648 – 567)

Abdelhady Mohammed Hamdansayed

Department of History and civilization, Faculty of Arabic language, Al-Azhar University, Assiut branch, Egypt.

Email: *abdelhadysayed.47@azhar.edu.eg*

Abstract

There have been many studies and researches that have been written about the Ayyubid state in its various political, economic, social and civilizational fields, but they have omitted some aspects in the civilizational aspect. These studies, despite their abundance, hardly mention anything about entertainment in this age, as if it were devoid of these recreational practices, despite their abundance and diversity, and the passion of the Ayyubid sultans and different categories of the Egyptian and Levantine society for them , as if life in this age had become completely barren and rough, although the reality and what is stated in the sources that dated the Ayyubid state confirms the existence of many means of entertainment and recreation, one of these means is the singing and music councils, which this study attempts to shed light on, which is an important aspect of social life in Egypt and the Levant that reveals another face of the people in power, and shows an aspect of the history of the Ayyubid state that has not received a proper share of study and research. The research highlighted this aspect starting

with talking about singing and its councils before the Ayyubid era, and then talking about the topic of research, by talking about the conditions of singing and music in the Ayyubid era, and the position of Salah al-Din on singing and singing councils during his reign, the interest of some of his successors from the sultans of BaniAyyub in singing and bringing singers closer to them, as well as the interest of princes and notables in singing and music councils, and talked about the demand of writers to hear singing in their private councils and banquets, and about the public demand in Egypt and the Levant to hear singing and attend singing councils. Finally, the research included a biography of the famous masters of singing and music in this era, followed by a conclusion that included the most important findings reached, and a mention of the sources and references that were relied upon, the research dealt with all these aspects and revealed them, relying on contemporary and reliable historical and literary sources.

Keywords: *Councils, singing, Music, Egypt, Levant, Ayyubid .*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

رب يسِّر وأعن بفضلك

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم النبيين، وسيد الأوَّلين والآخرين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد،،،

فلا شك أن الترفيه أمر مشروع ومطلوب في حياة الإنسان؛ حيث إنه يتوافق مع طبيعة النفس البشرية السوية، ويلبي بعض احتياجاتها، فهو مع اختلاف وسائله يشكل جانبًا مهمًا من حياة الإنسان لا يمكن الاستغناء عنه، ولمَّا كانت الحياة رحلةً شاقةً، محفوفةً بالمتاعب والآلام، لا يسلم الإنسان فيها في كل وقت وزمان من تجرع لون أو ألوان من مشقاتها ومتاعبها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله الله . عز وجل . ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾[1]؛ لهذا كان الناس . كل الناس . في أي عصر من العصور في حاجة إلى الترفيه والترويح، من أجل تجديد نشاطهم وحيويتهم، وإزالة التعب والضيق، وإشباع حاجاتهم ورغباتهم الجسمية والعقلية والنفسية بممارسة بعض الأنشطة الترفيهية التي تعود عليهم بالمتعة والفائدة .

ولمَّا كانت الدولة الأيوبية قد قامت في ظل ظروف سياسية حتَّمت عليها أن تكون دولةً عسكريةً، وقع على حكامها عبء مواجهة الخطر الصليبي الذي هدد الأمة الإسلامية، الأمر الذي صبغ حياة معظم سلاطينها بطابع الجد والبعد عن سلوك الترف واللهو، والتفرغ لمواجهة العدو الغاصب، وتسخير كل طاقات البلاد المادية والمعنوية من أجل دحره وطرده من الأراضي الإسلامية التي احتلها، إلا أن ذلك لم يمنع سلاطين بني

(١) سورة البلد آية ٤ .

أيوب وأبناء المجتمع المصري والشامي من أخذ نصيبهم من زينة الحياة الدنيا، والاستمتاع بمباهج الحياة، والميل إلى القيام ببعض ضروب التسلية والترفيه؛ بحثًا عن الراحة والمتعة، وتخفيفًا من عناء الحروب وويلاتها، وتزجيةً لأوقات الفراغ .

وقد عرف المجتمع المصري والشامي في العصر الأيوبي أنواعًا متعددة من وسائل التسلية والترفية، هي في معظمها موروثة من العصور السابقة، مع بعض التغييرات التي أملتها طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية التي مرَّ بها هذا العصر، فقد كان السلاطين والأمراء وكثير من فئات المجتمع المصري والشامي لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها، ويخمد أوارها، فكانوا يعقدون المجالس العلمية الحافلة للتباحث في أمور فكرية ولغوية وفقهية، وكان السلاطين والأمراء يشاركون العلماء في تلك المجالس، ويناقشونهم فيما يتناولونه ويطرح عليهم من مسائل، ويبدون رأيهم العلمي في المسائل التي تكون مثار خلاف ونقاش بين العلماء تارة، وتارة أخرى يعقدون مجالس أدبية يستمعون فيها إلى النوادر والفكاهات، ويستمتعون بما يدور فيها من مطارحات أدبية بين رواد هذه المجالس من الشعراء والأدباء، ويتبارون فيها مع الأدباء في مدارسة الشعر ونقده، أو يحضرون مجالس الغناء فيطربون بتغريد إحدى الجواري المغنِّيات .

كما اهتموا بممارسة العديد من الرياضات البدنية والذهنية المختلفة، من أجل الترويح عن النفس، وتطوير القدرة العسكرية؛ لما لبعض هذه الرياضات من علاقة مباشرة بفنون الحرب وخططها، فمارسوا رياضة الصيد، وأفادوا منها ترفيهيًا وحربيًا، وأتقن رجال الطبقة العسكرية من السلاطين والأمراء والجنود ألعاب الفروسية التي احتلت مكانةً كبيرةً بين الألعاب الرياضية في هذا العصر، وقد اتخذت أشكالا متعددةً منها: سباق الخيل، والمبارزة، واللعب بالرمح، ولعب الكرة، وإلى جانب ذلك مارس أبناء المجتمع المصري والشامي رياضات بدنية وذهنية أخرى من أهمها : المصارعة، والسباحة، ولعبة الشطرنج، ولعبة النرد، كما كانوا يخرجون إلى أماكن اللهو والنزهة، ويرتادون الحدائق والمتنزهات، طلبًا للنزهة والراحة، والاستمتاع بمناظر الطبيعة وجمالها الساحر، ولما كانت هذه الجوانب

قد حظيت بنصيب وافر من جهود الكتَّاب والمؤرخين المحدثين[١] رأينا أن نقصر بحثنا على مجالس الغناء والموسيقى ودورها الترفيهي في هذا العصر فهي بحاجة إلى دراسة متأنية فاحصة .

وفي الواقع قد يبدو الحديث عن مجالس الغناء والموسيقى في العصر الأيوبي أمرًا غريبًا للوهلة الأولى، فهو عصر خيَّم عليه كابوس الحروب الصليبية، ولم يعرف الهدوء إلا قليلاً، إلا أن هذه الغرابة والدهشة تزول عندما نعرف أن الحياة الاجتماعية في هذا العصر بجانبها المشرق اللاهي لم تتوقف، فلم يكن هذا العصر عصر حروب ضد الصليبيين أو صراعًا بين سلاطين بني أيوب من أجل السلطة فحسب، لم يكن للفن الجميل فيه نصيبٌ ملحوظٌ كما يعتقد البعض، وإنما كان عصرًا جمع بين فنون الحرب وفنون السلم على السواء، وألَّفَ بين حياة المعسكرات بما فيها من خشونةٍ، وبين حياة المدن بما فيها من ليونةٍ ودعةٍ، فحياة سلاطين بني أيوب لم تكن كلها حروبًا ضد الصليبيين أو صراعًا من أجل السلطة، فصلاح الدين ـ رغم تدينه وعشقه للجهاد وميله إلى التقشف ـ إلا أنه لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الذي لا يقعده عن واجب الجهاد والقتال، فخصص شطرًا من حياته لإشباع النفس من بحور العلم ومناهله الأصيلة على أيدي كبار العلماء، وكان يحضر في بعض أوقات فراغه مجالس السماع التي كان يقيمها الصوفية، كما كان يستمع إلى الغناء

(١) ومن أهم هذه الدراسات والأبحاث ما يلي: ١ . محمد حلمي محمد أحمد : الحياة العلمية في مصر والشام ٥٢١ ـ ٦٤٨هـ / ١١٢٧ـ ١٢٥٠م، المجلة التاريخية المصرية، مجلة علمية تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السابع، القاهرة ١٩٥٨م.

٢. ناظم رشيد: المجالس الأدبية في عصر صلاح الدين الأيوبي، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام العراقية، المجلد السابع عشر، العدد الثالث١٩٨٨م .

٣ـ ناظم رشيد: النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية، مجلة آداب الرافدين، العدد ٨، يناير١٩٧٧م .

٤ـ عبدالهادي محمد حمدان : الرياضة والتنزه في العصر الأيوبي بمصر والشام (٥٦٧ـ ٦٤٨هـ /١١٧١.١٢٥٠م) مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد الأربعون، إصدار أكتوبر ـ الجزء الثالث ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م .

العفيف الذي يسمو بالنفس، ولا يخرج على حدود الدين والأخلاق، أو المبادئ والمثل التي كان يأخذ بها نفسه، من أجل الترفيه وإدخال السرور على النفس، وطلبًا للراحة من عناء الجهاد ومشقاته، كما أن تديُّنه وحبه للجهاد لم يحل دون انتشار مجالس الغناء في عهده في مصر والشام، واتخاذها سبيلا من سبل الترويح، فانتشرت هذه المجالس وكانت تعقد في الميادين والساحات، ويحضرها الخاصة والعامة من أجل الترفيه وتزجية أوقات الفراغ .

وإذا كانت نزعة صلاح الدين إلى التقشف أقوي منها إلى الترف، فإن نزعة بعض خلفائه من الملوك الأيوبيين كانت إلى الترف أقوى منها إلى التقشف، فسلكوا مسلكًا غير مسلكه، وتخلقوا بأخلاق غير أخلاقه، فكانت نفوسهم تميل نحو الاستمتاع بمباهج الحياة ومتعها وملذاتها، واقتناص أوقات الفراغ في عقد المجالس العلمية والأدبية تارة، وفي سماع الغناء والموسيقى تارة أخرى، وقد ساعدهم على ذلك حياة الترف والرخاء التي عاشها الكثير منهم، فأقبلوا على الاهتمام بالغناء ومجالسه، وأعطوه جانبًا من اهتمامهم، وأحاطوا أنفسهم بأربابه، واهتم بعضهم بامتلاك العديد من الجواري المغنِّيات اللاتي كن يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية .

ولم يقتصر الاهتمام بالغناء ومجالسه على سلاطين بني أيوب، وإنما كان لبعض الأمراء والأعيان والأدباء اهتمام أيضًا، وكانت لهم مجالس حافلة لا تقل أبهةً وروعةً وبذخًا عن مجالس السلاطين، كما أقبل العامة في مصر والشام على سماع الغناء والموسيقى، على الرغم من الظروف الصعبة والأحداث العظيمة التي مرُّوا بها؛ حيث استمر أبناء المجتمع المصري والشامي في ممارسة حياتهم بصفة طبيعية، وحيث كانت الحرب تدور في ساحاتها، كان الناس يجدون للفرح متسعًا، فيحيون أيام أعيادهم ومناسباتهم بالاحتفالات الكبيرة، وقد ظهر في بعض هذه الاحتفالات مظاهر من البذخ والإسراف، كما شهد هذا العصر أوقات سرور وفرح انصرف الناس خلالها إلى سماع الغناء والموسيقى كلون من ألوان الترفيه والتخفيف من ضغوط الحياة ومشقاتها .

ولمَّا كانت مجالس الغناء والموسيقى في العصور التي سبقت العصر الأيوبي والتي تلته قد حظيت بعدد من الدراسات المتخصصة، ولم تحظ هذه المجالس في العصر الأيوبي بدراسةٍ متخصصةٍ وافيةٍ، باستثناء ما كتبه الدكتور/ نبيل محمد عبد العزيز في كتابه (الطرب وآلاته في العصرين الأيوبي والمملوكي) وما جاء فيه خاصًا بالعصر الأيوبي لا يعدو بضع صفحات، ومع اعترافنا له بفضل السبق في الكتابة عن هذا الجانب المهمل من قبل الباحثين، إلا أنه لم يستوف جوانب الموضوع، فكان هذا البحث وهو بعنوان : (وسائل الترفيه في العصر الأيوبي بمصر والشام (مجالس الغناء والموسيقى نموذجًا) ٥٦٧ . ٦٤٨هـ / ١١٧١. ١٢٥٠م) محاولةً لإلقاء الضوء على هذا الجانب المهم من تاريخ وتراث الدولة الأيوبية؛ رغبةً في مزيد من الاستقصاء التاريخي لهذا الجانب، وبيان مدى تأثير حالة الحرب والجهاد على هذه المجالس وانتشارها، ولتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن هذا العصر، وليكون جهدًا متواضعًا في هذا المجال .

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه ليس غرض البحث اتهام المجتمع المصري والشامي في العصر الأيوبي بالتحلل والمجون، أو وصمه بأنه كان غارقًا في طلب الملذات بعيدًا عن الأحداث الكبرى التي كانت تمرُّ بها البلاد، ولا أقصد بالكتابة عن هذا الجانب أن أدين هذا العصر، أو أن أظهره بصورةٍ سلبيةٍ قاتمةٍ، فقد كان له جوانب مشرقةٍ وضاءةٍ تفوق بكثير الجوانب السلبية، ولا يخلو أي عصر مهما كثرت حسناته ومزاياه من مظاهر الفساد والانحراف، فتناولنا لهذا الموضوع لا يُجمِّلُ قبيحًا، ولا يُقبِّحُ جميلاً، وإنما هدفه البحث عن الحقيقة، وإبراز البعد التاريخي للموضوع وتأصيله وتوثيقه .

وقد اتبعت في كتابة هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع المعلومات المتعلقة بهذا الجانب من المصادر الأصلية وتحليلها، ثم مقارنتها مع المصادر الأخرى، وقد بدأته بمقدمة أوضحت فيها أهمية موضوع البحث، وأسباب اختياره، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث، ثم تطرقت لموضوع البحث وذلك من خلال الحديث عن العناصر التالية :

أولًا . الغناء والموسيقى قبيل العصر الأيوبي .

ثانيًا . أحوال الغناء والموسيقى في العصر الأيوبي .

ثالثًا . موقف صلاح الدين من الغناء ومجالس الغناء في عهده .

رابعًا . اهتمام خلفاء صلاح الدين بمجالس الغناء والموسيقى .

خامسًا . اهتمام الأمراء والأعيان بالغناء ومجالسه .

سادسًا . الأدباء ومجالس الغناء والموسيقى .

سابعًا . العامة ومجالس الغناء والموسيقى.

ثامنًا . مشاهير أرباب الغناء والموسيقى .

ثم ذكرت في نهاية البحث خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها، وثبت للمصادر والمراجع، وقد اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على العديد من المصادر الأصيلة، والمراجع العربية والمعرَّبة التي أثبتها في نهاية البحث .

والله أسأل أن يمدني بعونه وتوفيقه في عرضي لجوانب هذا الموضوع، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله نافعًا مقبولًا، وأن يتجاوز عمَّا فيه من الخطأ أو التقصير، إنه . تعالى . سميع مجيب، وهو نعم المولى ونعم النصير .

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1] .

د/ عبدالهادي محمد حمدان سيد
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط

(١) سورة هود من آية ٨٨ .

أولا ـ مجالس الغناء والموسيقى قبيل العصر الأيوبي:

الغناء والموسيقى من الفنون التي كانت موجودة وحاضرة على مرِّ العصور في المجتمعات المختلفة، والعرب ليسوا بِدْعًا من الأمم، فقد عرف العرب الغناء منذ أقدم العهود، وقد اشتهر عندهم من خلال ثلاثة أنواع : النَّصْبُ، والسناد، والهزج، فأما النَّصْبُ: فغناء يشبه الحُدَاء(١)، وهو غناء الرُّكبان والفتيان، وأما السناد : " فهو الثقيل ذو الترجيع، الكثير النغمات والنبرات ...، وأما الهزج : فهو الخفيف الذي يرقص عليه، ... وهو الذي يستفز القلوب ويهيج الحليم " (٢).

ولما بدأت حركة الفتوحات الإسلامية واتصل العرب بالأمم الأخرى من الفرس والروم خلال حروب التحرير والفتح، وبسبب ما جلبته عليهم هذه الفتوح من أموال، وما مهدت لهم من سبل الحضارة، تأثر العرب بالفرس والروم فغنُّوا بالعيدان(٣) والطنابير(٤) وغيرها من آلات الموسيقى(٥)، وتطورت فنون الغناء والموسيقى، وزاد الإقبال على سماعها وحضور

(١) الحُدَاء : ما ينشده الحادي خلف الإبل من رجز وشعر ليحضها على السير . ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، باب (الحاء) مادة (حدا) ١٠/ ٨٠٧، ٨٠٨ .

(٢) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، بيروت لبنان١٩٨١م، ٢/ ٣١٣، ٣١٤، الإبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق / إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، د. ط . ت، ص ٤٤٠ .

(٣) العيدان : جمع عود، وهو من الآلات الوترية، وهو آلة من خشب مُخَرَّقة؛ له عنق ورأس ممال إلى الخلف، له أربعة أوتار، وهو أفخر آلات الطرب وأرفعها قدرًا وأطيبها سماعًا . القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا،دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢م،٢ / ١٤٣.

(٤) الطنابير : جمع طنبور، وهو من آلات الطرب الوترية، يشبه العود من حيث إعطاء الأنغام، ولكنه أطول منه عنقًا . حسين على محفوظ : معجم الموسيقى العربية، مطبعة دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٤م، ص ٤١، ٤٢.

(٥) ابن رشيق العمدة ٢ / ٣١٤ .

مجالسها، فانتشر الغناء ومجالسه في العصر الأموي (٤١ . ١٣٢هـ /٦٦١- ٧٤٩م) بصورة ملحوظة، واستمرت فنون الغناء والموسيقى في التطور حتى ازدهرت بشكل كبير، وبلغت ذروة الكمال في العصر العباسي (١٣٢- ٦٥٦هـ / ٧٤٩ . ١٢٥٨م) بفضل اهتمام بعض الخلفاء العباسيين والأمراء وكبار رجال الدولة بالغناء، وتشجيعهم للمغنين والمغنِّيات بالهدايا والأموال، فانتشرت مجالس الغناء بصورة فاقت حد الوصف، حتى ليخيل لمن يقرأ كتاب (الأغاني) للأصفهاني أنه لم يعد للخلفاء والأمراء وغيرهم من فئات المجتمع العباسي في مختلف الحواضر الإسلامية من متعة فنية يستروحون بها سوى الغناء وسماعه وحضور مجالسه [١] .

أما في العصر الفاطمي (٣٥٨ -٥٦٧هـ /٩٦٨ . ١١٧١م) فقد انتشر الغناء بين كافة طبقات المجتمع المصري، ولقيت مجالسه اهتمامًا كبيرًا، وهذا الاهتمام يرجع بالدرجة الأولى إلى حياة الترف والرخاء التي عاشها الخلفاء الفاطميون، وإقبال كثير منهم على سماع الغناء، وتشجيعهم للمغنين والمغنِّيات وإغداقهم الأموال عليهم، بالإضافة إلى كثرة الأعياد والمواسم المختلفة التي كانوا يحتفلون بها، والتي كان من أهم مظاهر الاحتفال بها

(١) للوقوف على أخبار هذه المجالس، وما كان يجري فيها من ضروب اللهو والمجون ينظر : أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٢م، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن هذا الكتاب ليس من المصادر الموثوقة التي يُعوَّل عليها في دراسة التاريخ الإسلامي، لأنه يحتوي على عددكبير من الأخبار والروايات المكذوبة والملفقة التي لا أصل لها، والتي تشوه تاريخنا وتسيء إلى ماضينا، ومن ثم لا بد من الاحتراز وتحكيم العقل والمنطق في قبول أخباره، وللمزيد عما يحويه هذا الكتاب من الدَّس والكذب ينظر: وليد الأعظمي : السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ١، المنصورة ١٩٨٨م .

الخروج إلى المتنزهات طلبا للراحة والنزهة، والاستمتاع بمناظر الطبيعة وجمالها الساحر، وما يصاحب ذلك من حضور مجالس الغناء والطرب وغيرها من أنواع الملاهي(١) .

اهتم الخلفاء الفاطميون بالغناء وشغفوا بسماعه وحضور مجالسه، فلم يكن يخلو مجلس من مجالسهم الخاصة والعامة من سماع الغناء والموسيقى، فقد كان الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ . ٣٨٦هـ/٩٧٥ . ٩٩٥م) محبًا للهو والترف، شغوفًا بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ومشاهدة الألعاب والملاهي، ومن أجل هذا أكثر من اقتناء الجواري المغنِّيات الحسناوات، والرقاصات المبدعات، وكان يغدق عليهن بسخاء، وكنَّ يلازمنه في أوقات فراغه، فيقضى معهن أوقاتًا مرحةً وهو يحتسي الخمر، ويشاركهن الغناء والعزف، وفي نهاية المجلس ينثر عليهن نفيس الجوهر والأحجار الكريمة (٢) .

وقد انتشرت مجالس الغناء والطرب في بداية عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ . ٤١١هـ /٩٩٦ـ ١٠٢٠م) فكانت تعقد على ضفتي خليج القاهرة(٣) ويحضرها الخاصة والعامة، فلما تفشى الانحلال الأخلاقي من جراء انتشار هذه المجالس، وكثر خروج النساء

---

(١) عبد المنعم عبد الحميد سلطان : الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية) ، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ٢١٥ .

(٢) ابن الزبير: الذخائر والتحف، تحقيق / محمد حميد الله، الكويت ١٩٥٩م، ص ١٤.

(٣) خليج القاهرة : يقع هذا الخليج في شمال الفسطاط، وهو خليج قديم حفره بعض ملوك مصر، وجدده عمرو بن العاص . ﷺ . بإشارة من عمر بن الخطاب . ﷺ . في عام الرمادة، وكان يعرف بخليج أمير المؤمنين، وخليج مصر، فلما بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة في شرقيه صار يعرف بخليج القاهرة . المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ(الخطط)، تحقيق / محمد زينهم، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة ١٩٩٨م، ٢ / ٦٩١، ، وسيشار إليه فيما بعد بالخطط، السيوطي : حسن المحاضرة في في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، القاهرة ١٩٦٨ م ، ٢ / ٣٨٧ .

في الليل حتى غلبوا الرجال، وكثر التجاهر بالمنكرات، أصدر الحاكم عدة قرارات تمنع خروج النساء، وتُحرِّم شرب الخمر، والاجتماع للهو واللعب وسماع الغناء[١]، ثم تشدد في محاربة الانحلال الأخلاقي فأصدر في سنة (٤٠١هـ /١٠١٠م) عدة قرارات للحد من مظاهر الفساد ومن بينها الغناء والموسيقى، فمنع الاستماع إلى الأغاني، وأمر بتحطيم آلات الموسيقى وإحراقها، ونهي عن بيع المغنيات[٢]، ثم أمر في سنة (٤٠٢هـ/١٠١١م) بنفي سائر المغنين وأصحاب الملاهي من البلاد [٣].

على أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلًا، فقد عادت مجالس الغناء والطرب إلى سيرتها الأولى بعد وفاته، وشغف بعض من جاء بعده من الخلفاء الفاطميين بالغناء والموسيقى، فكان ابنه الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ .٤٢٧هـ /١٠٢٠. ١٠٣٥م) يميل إلى الملاهي ومجالس الشراب، فأباح كل ما منعه والده، وأقبل على شرب الخمر، ومجالس الطرب والغناء، ورخَّص للناس في ذلك، فأقبلوا في عهده على اللهو وشرب الخمر، وسماع الغناء، واتخذوا المغنِّيات والراقصات[٤]، ويبدو أن هذا الإقبال كان تعويضًا عن فترة الحرمان التي سادت المجتمع المصري في معظم فترات عهد الحاكم بأمر الله .

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاباأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق/ محمد حلمي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦م، ٢ / ٣٨ .

(٢) الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي المعروف بـ (صلة تاريخ أوتيخا) تحقيق/ عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس، طرابلس ـ لبنان١٩٩٠م ص٢٨٩، ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب(المغرب في حلى المغرب) تحقيق/ حسين نصار، دار الكتب١٩٧٠م، ص٦٢، المقريزي : الخطط ٣/ ٢٤٧.

(٣)الأنطاكي : المصدر السابق ص ٢٩٣.

(٤) الأنطاكي : المصدر السابق ص ٣٧٤، المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ / ١٢٩، ١٨٢، الخطط ٢/ ٣٩، ٤١.

غير أن أبناء المجتمع المصري أساءوا استخدام هذه الحرية التي منحت لهم، فلم يقتصروا على مجرد شرب الخمر وسماع الغناء، وإنما أسرفوا في الانغماس في اللهو والمجون، ولم يتورعوا عن المجاهرة بشرب الخمر حتى في الأشهر التي كان لها قداستها وروحانيتها في نفوس المسلمين، وهي رجب وشعبان ورمضان، فترك معظم الناس الإكثار من العبادات في هذه الأشهر، وانصرفوا إلى شرب الخمور والاستمتاع بالملذات، مما دفع الخليفة الظاهر- حرصًا منه على المحافظة على مظهر الخلافة الرسمي . إلى إصدار منشور في رجب سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م) يأمر فيه بمنع الغناء، ورفع المناكر، وترك التظاهر بشيء منها في هذه الأشهر[١].

أما الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ . ٤٨٧ هـ /١٠٣٥. ١٠٩٤م) فكان كما ذكر مؤرخوه مقبلا على اللهو والشراب، لا تخلو مجالسه من الأنس والطرب والغناء، وكان له مغنية متميزةً في الغناء والإنشاد الشعبي تسمى(نسب الطبالة) كانت تقف تحت القصر الفاطمي الكبير في المواسم والأعياد ومعها فرقتها الموسيقية لترديد الأغاني في تلك المناسبات السعيدة، كما كانت تسير في ركاب الخليفة في أيام الأعياد والمواكب وهي تضرب بالطبل وتنشد الأغاني[٢]، وعندما وردت الأخبار إلى مصر في سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٩م) باستيلاء البساسيري[٣] على بغداد، وقيامه بالدعاء على منابرها للخليفة

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ / ١٣٥.

(٢) المقريزي : الخطط ٢ / ٦٥٦.

(٣) هو أبو الحارث أرسلان بن عبيدالله البساسيري التركي، مقدم الأتراك ببغداد، كان في بداية أمره مملوكًا لبعض التجار، ثم صار لبهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه الذي جلبه إلى بغداد، وأدخله في الجيش البويهي، ثم تدرَّج في المناصب حتى غدا من المقربين للخليفة العباسي القائم بأمر الله(٤٢٢ . ٤٤٦هـ/١٠٣٠- ١٠٥٤م) فقلَّده الأمور كلها، وكان لا يقطع أمرًا دونه، فزاد نفوذه واستبد بالسلطة، وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في بغداد سنة ٤٥٠هـ، قتل بيد السلاجقة في سنة ٤٥١هـ . ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق /إحسان عباس، دار صادر، بيروت١٩٩٤م،١ / ١٩٢، ١٩٣.

المستنصر بالله الفاطمي، سُرَّ الخليفة سرورًا كبيرًا، وزينت القاهرة والفسطاط، وعمَّت الأفراح البلاد، وأقبلت(نَسَبْ الطبالة) فوقفت تحت قصر الخلافة وغنَّت وهي تضرب بدف[١] في يدها :

يا بَنِي العَبَّاسِ رُدُّوا مَـــلْكَ الأَمْـــرَ مَعَـدُّ
مُلْكُكُـــم مُـلْكٌ مُعَـارٌ والعَـــوَارِي تُسْتَـــرَدُّ

فأعجب المستنصر بغنائها وطرب، وقال لها : " تمني ملك حكمك " فسألته الأرض المجاورة للمقس، فوهبها إياها[٢]، فعرفت منذ ذلك اليوم بأرض الطبالة [٣] .

كما اشتهر الخليفة الآمر (٤٩٥ـ ٥٢٤هـ/١١٠١ـ ١١٢٩م) بحبه للهو والغناء والموسيقى، وامتلاك الجواري المغنِّيات اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والرقص والموسيقى، وقد اعتاد . أثناء فترة خلافته . الخروج إلى بساتينه بظاهر القاهرة ثلاثة أيام في الأسبوع، وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومعهم طعامهم وشرابهم للاحتفال به والتطلع إلى موكبه [٤]، ويطول بنا القول لو تتبعنا اهتمام الخلفاء الفاطميين بالغناء ومجالسه، ويخرج بنا عمَّا نحن بصدده .

---

(١) الدُّفُّ : بضم الدال وقد تفتح وجمعه دفوف، آلة طرق من آلات الموسيقى، ذات رق واحد من الجلد، مشدود على إطار خشبي مستدير، منه ما له صُنُوج، ومنه ما ليس له صُنُوج ويسمى المِزْهَر أو الطار . القلقشندي : صبح الأعشى ٢ / ١٤٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق/ أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، ط١، القاهرة ١٩٩٦م، ص١١٩، ١٢٠، المقريزي : اتعاظ الحنفاء ٢ / ٢٥٤، المقريزي : الخطط ٢ / ٦٥٦.

(٣) أرض الطبالة : تقع في الجانب الغربي من خليج القاهر بجوار المقس، وقد كانت من أحسن متنزهات القاهرة في العصر الفاطمي وما تلاه من عصور . المقريزي : الخطط ٢/ ٦٥٦.

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣ /١٢٩، ١٣٠.

ولم يقتصر الاهتمام بالغناء ومجالسه على الخلفاء الفاطميين، وإنما سار رجالات الدولة الفاطمية من الأمراء والوزراء على نهج خلفائها في حبهم للغناء وحضور مجالسه، وتقريبهم للمغنين والمغنيات، وقد كان للثراء العريض الذي نعم به الأمراء ومعظم الوزراء، والحياة المترفة التي عاشها الكثير منهم أثر كبير في ذلك، فعلى سبيل المثال كان الأمير تميم بن المعز لدين الله (ت ٣٧٤ هـ/٩٨٤م) [١] محبًا للهو واقتناص اللذات، ولعًا بالشراب وسماع الغناء، منصرفًا بكليته إلي حياة اللهو والمجون، يؤثر اللهو على كل شيء ولا يتورع عن التظاهر بذلك، فالحياة في نظره ما هي إلا قينةٌ وخمرٌ، وساق مليح، وقد عبَّر عن هذا بقوله :

قَدْ اجتَمَعَ البُسْتَانُ والرَّوضُ والخَمْرُ وحُــرِّكَتِ الأَوْتَــارُ وارْتَفَــعَ الزَّمــرُ
فَمَا لَكَ لا تَغْدُو إلى الـرَّاحِ غَــدْوةً يُبِيحُكَ فيهـا كُلَّ ما تَشْتَهِـي السُّكرُ
هــل العيــش إلاَّ قينــةٌ ومُدَامَــةٌ وسـاقٍ مليحٌ ليس يُعْصَى لَـهُ أمْرُ [٢]

وقد كان يرى أنه لا قيمة للحياة دون لهو وشرب خمر، وأن اللهو دون سماع الغناء وشرب الخمر لا يعد لهوًا، وقد أشار إلى هذا بقوله :

خليلَيَّ لا عَيْش سوى اللهو والصِّبا ولا لهْوَ إلاَّ في سَمَاعٍ وفي خمْرٍ [٣]

---

(١) هو أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن المهدي، كان شاعرًا ظريفًا جوادًا، ولد في مدينة المهدية بتونس سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، عزله والده عن ولاية العهد، ولم يعهد إليه بأي عمل من الأعمال لعدم ثقته فيه، فانصرف إلي حياة اللهو والمجون، توفي بمصر سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٠١ . ٣٠٣، المقريزي : المقفى الكبير، تحقيق/ محمداليعلاوي، دارالغرب الإسلامي،ط ١، بيروت١٩٩١م،٢ /٥٨٨ . ٦٠٠ .

(٢) ديوان تميم، تحقيق/ محمد حسن الأعظمي، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة ١٩٥٧م، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

ومما يذكر عنه في هذا الشأن أنه ركب ذات مرة في النيل متنزهًا، فمرَّ ببعض الدور المشرفة عليه، وشاهد جارية تغنِّي هذا الصوت :

نبهتُ نَدْماني بدجلةَ مَوْهِنًا والنَّجْمُ في أُفقِ السَّماءِ مُعلَّقُ

والبدرُ يَضْحَكُ وجهُهُ في وَجْهِهَا والمَاءُ يَرْقُصُ حوْلَنَا ويُصَفِّقُ

فاستحسنه وطرب عليه، وما زال يطلب منها أن تكرره وهو يستمع إليها ويشرب حتى انصرف وهو لا يعقل سكرًا، فلما أصبح عارضهما بقوله :

شَرِبْنَا على النيل لمَّا بَدَا بمَوْجٍ يزيدُ ولا يَنْقُصُ

كأنَّ مَعَاطِفَ أَمْوَاجِهِ مَعَاطِفُ جَارِيَةٍ ترقصُ(١)

ومما يدل على شدة اهتمامه بالغناء ومجالسه ما ذكر عنه من أنه أرسل إلى بغداد فابتيعت له جاريةٌ مغنية رائعةٌ الحسن، جميلة الصوت، فلما وصلت إليه دعا جلساءه إلى مجلس أنسه وشرابه، وأمرها بالغناء فغنَّت :

وبَدَا لَهُ مِن بعْدِ ما اندَمَلَ الهوَى بَرْقٌ تَألَّقَ مُوْهِنًا لمَعَانُهُ

يَبْدو كحاشيةِ الرِّداءِ ودُونَهُ صَعْبُ الذُّرى مُتَمَنِّعٌ أرْكانُهُ

فالنَّار ما اشْتَمَلَتْ عَلَيهِ ضُلوعُه والماءُ ما سَمَحَتْ بهِ أجْفَانُهُ

فأحسنت ما شاءت وأطربتهم، ولم يزل غناؤها يزيده طربًا حتى قال لها : " تمنَّى ما شئت فلك مُناك "، فتمنت أن تغنِّي ما غنَّته في مجلسه ببغداد، فلم يجد بدًا من الوفاء لها . وهو كاره لذلك . فأرسلها، فلما اقتربت من بغداد هربت، فلمَّا علم بالأمر اغتم، وظل بعد ذلك ذاكرًا لها واجمًا عليها (٢) .

---

(١) تميم ابن المعز: المصدر السابق ص ٢٥٥، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، تونس ٢٠٠٨م، ص ١١١، ١١٢، ابن كثير : البداية والنهاية، تحقيق / ←←←

وكان بَرْجَوَان الخادم (ت٣٩٠هـ/٩٩٩م)[١]وزير الخليفة الحاكم بأمر الله ميالًا إلى اللهو، محبًا للغناء والموسيقى، كثير الطرب شديد الشغف بذلك، ومما يروى عنه أنه كان يُحْضِرُ إلى قصره المغنين والمغنِّيات ويدنيهم منه، ويقضى ليله وجزءًا كبيرًا من نهاره في سماع الغناء، وقد شغله انهماكه في اللهو عن القيام بمهام الوزارة فقصَّر فيها [٢].

ولم يقتصر الإقبال على سماع الغناء والموسيقى على السلاطين والأمراء والوزراء، وإنما شاركهم العامة أيضًا، ولا غرابة في هذا فالناس على دين ملوكهم وهم بزمانهم أشبه، فحاكى العامة في هذا العصر خلفاءهم في الإقبال على الغناء ومجالسه، حيث كانوا يحضرون مجالس الغناء والطرب التي كانت تعقد في المواسم والأعياد التي تعددت وزادت زيادةً مفرطةً في هذا العصر، فكانوا يخرجون في تلك المناسبات بالأهل والولد إلى المتنزهات المنتشرة في ضواحي القاهرة والفسطاط، وبصحبتهم المغنيات، فيضربون عليها السرادقات والخيام، ويقضون وقتهم في تناول الطعام والشراب والاستماع إلى الغناء

←←←

عبدالله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٩٨ م، ١٥/ ٣٩٢، المقريزي : المقفى الكبير ٢ / ٥٩٩، ٦٠٠.

(١) هو أبو الفتح بَرْجَوَان العزيزي، كان خصيًا صقلبيًا من خدام الخليفة العزيز بالله ومدبِّري دولته، ثم تولى الوزارة للحاكم بأمر الله سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، فزاد نفوذه وكثرت أمواله، واستبد بمقاليد الأمور، واستطال على الحاكم فأمر بقتله سنة٣٩٠هـ . ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق / عبدالله مخلص، مقتطف من مجلة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، المجلد الخامس والعشرون، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٢٤م، ص ٢٧، ٢٨، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٢٧٠، ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ص ٦٣، ٦٤.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ / ٢٦، الخطط ٢/ ٣٧٤، المقفى الكبير٢ / ٥٧٤.

والموسيقى[١]، كما كانوا يترددون على أماكن اللهو والنزهة المنتشرة في ضواحي القاهرة والفسطاط، والدور التي أعدت لذلك[٢] .

ثانيًا . أحوال الغناء والموسيقى في العصر الأيوبي:

على الرغم مما أحاط بالدولة الأيوبية من ظروف سياسية حتمت عليها أن تكون دولةً عسكريةً، وجهت طاقتها الكبرى نحو الدفاع عن العالم الإسلامي وحمايته من الخطر الصليبي، فإن رحى المعارك وصليل السيوف لم يعرقل تيار التقدم الحضاري، ولم يوقف ازدهار الفنون بمختلف أنواعها، ولم يؤد إلى إهمال شئون الغناء والموسيقى كلية[٣]، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة الجواري من سبي الحروب اللاتي كانت الكثيرات منهن يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب، واهتمام بعض سلاطين بني أيوب بسماع الغناء وحضور مجالسه، وامتلاكهم الجواري المغنِّيات اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية[٤]، والرخاء الاقتصادي الذي شهدته مصر والشام في كثير من الأوقات بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها سلاطين الدولة الأيوبية لتشجيع الزراعة والتجارة وسائر وجوه النشاط

(١) المقريزي : الخطط ٢/ ٥٩، ٦٠، عبد المنعم سلطان : الحياة الاجتماعية ص ٢١٧ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الأعياد الفاطمية، وأماكن النزهة التي كان يخرج إليها العامة، وما كان يجري فيها من ضروب اللهو والمجون في هذا العصر. انظر : المقريزي : المصدر السابق ٢/ ٣٤٧ . ٣٦١،٧٢٣، ٧٢٤، ٧٤٧، ٧٨٧ . ٨٠٢.

(٣) نبيل محمد عبد العزيز: الطرب وآلاته في عصري الأيوبيين والمماليك، ط ١، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٦ .

(٤)ابن دقماق : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق/ سمير طبارة، المكتبة العصرية، ط ١، بيروت ١٩٩٩م، ص٩٩، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق / محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦م،١ / ق١ / ١٧٦، ق ٢ / ٢٧٥.

الاقتصادي[١]، ثم ما كانت تعانيه مصر والشام من ويلات الحروب، وما استتبع ذلك من تسرب روح اليأس في نفوس الناس في كثير من الأوقات، فوجدوا في مجالس الغناء وغيرها من وسائل الترفيه راحةً ومتنفسًا لما عانوه من هذه الويلات [٢].

أقبل الناس في هذا العصر حكامًا ومحكومين في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع الغناء والموسيقى كوسيلة من وسائل الترفيه والمتعة، وتزجية أوقات الفراغ، وفرضت الدولة على الجواري المغنِّيات ضريبة عرفت باسم (ضمان القيان)[٣]، ولا شك أن فرض هذه الضريبة يدل على أن هناك جهةً منظمةً كانت تأخذ هذه الضريبة ممن يحترفن الغناء، وهو ما يعني اعتراف الدولة بهذه المهنة، وإشرافها على ممارستها، كما يدل على كثرة عدد الجواري المغنيات، وكثرة مشاركتهن في الحفلات العامة والخاصة .

والجدير بالذكر في هذا السياق ما ورد في المصادر المعاصرة من أن نشو الدولة المعروف بـ (ابن المنجم)[٤] قد ضمن جباية ضريبة الصابون والملاهي في مصر، فبالغ

---

(١) ابن جبير : رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك المعروف بـ (رحلة ابن جبير) ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١م، ص ١٥ ، ١٦، ٢٣٥، وسيشار إليه فيما بعد برحلة ابن جبير .

(٢) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٧م، ص٢٩٦، ٢٩٨.

(٣) ضمان القيان، ويعرف بضمان المغاني : ضريبة كانت تفرض على من تحترف الغناء من الجواري، فكانت لا تخرج مغنية إلى حفل إلا بعد أن يأخذ الضامن منها مبلغًا من المال . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق/ إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط١، دمشق ٢٠١٣م، ٢٢/ ٢٣١، حسن أحمد البطاوي : الضمان في مصر المملوكية ، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣٧ (يوليو . سبتمبر ٢٠٠٩م) ص ٣٠٥ ،٣١٤ .

(٤)هو نشو الدولة أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بـ (ابن المنجم)، شاعر معري الأصل، مصري الدار والوفاة، ولد سنة٥٤٩هـ/١١٥٤م، ونشأ على اللهو والمجون، كان أشعر أهل زمانه، مدح الملوك والوزراء، ضمن الملاهي والصابون، وعسف بالناس فعوقب بالنفي إلى عيذاب، توفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م . العماد: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، تحقيق / أحمد أمين وآخرين، ←←←

في جبايتها، واستخدم وسائل البطش في تحصيلها، وأسرف في ذلك وارتكب المناهي، فشكى الناس منه، فعاقبته السلطات الحاكمة بالنفي إلي عيذاب(١).

والحقيقة أن فرض هذه الضريبة في العصر الأيوبي لم يأخذ صفة الاستمرارية، وإنما كان فرضها مرتبطًا في كثير من الأوقات بالظروف الاقتصادية التي تمرُّ بها البلاد من ناحية، وطبيعة من يتولى السلطنة من ناحية أخرى، فكانت تُلْغَى في بعض الأحيان، كما حدث في عهد صلاح الدين الذي أبطلها مع ضرائب أخرى(٢)، ولكن عادت الدولة إلى تحصيلها في عهد ابنه العزيز عثمان(٣)(٥٨٩ . ٥٩٥هـ/١١٩٣. ١١٩٩م) الذي قام بإعادة المكوس التي أبطلها والده وزاد في شناعتها(٤)، ثم أبطلها السلطان العادل الأيوبي (ت ٦١٥هـ /١٢١٨م) في سنة ٦١٢هـ /١٢١٥م، وفي هذا الصدد تذكر الروايات أن بعض المغاني دخلت على العادل وكان حاضرًا في عرس، فسألها عن سبب تأخرها،

→→→

طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية١٩٥١م، ١/ ١٦٨، ١٦٩، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص ٣٤٥ . ٣٤٧، السيوطي: حسن المحاضرة ١ / ٥٦٥ .

(١) العماد : المصدر السابق نفس الجزء ص ١٦٨، ابن سعيد : المصدر السابق ص ٣٤٥. وعَيْذَاب: مدينة مصرية وميناء هام على البحر الأحمر، على حدود السودان تقع في الشمال من حلايب بنحو ٢٢كم . ياقوت : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ٤/ ١٧١، عبد الحكيم العفيفي : موسوعة ألف مدينة إسلامية، أوراق شرقية للطباعة والنشر، ط١، بيروت . لبنان٢٠٠٠م ص، ٣٤٦.

(٢) المقريزي : السلوك ١/ ق ١ / ٨٦، الخطط ١/ ٢٩٨، ٣ / ١١٤.

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن يوسف بن أيوب بن شادي، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وسمع الحديث من الحافظ السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، تولى حكم مصر نيابة عن أبيه، واستقل بحكمها بعد وفاته سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، كان جوادًا سمحًا، توفي سنة ٥٩٥ هـ . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان٢٢ / ٦٨، ٦٩، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٢٥١ . ٢٥٣.

(٤) المقريزي : الخطط ١/ ٣٠٣ .

فأخبرته أنها لم تستطع الحضور إلا بعد أن وفَّت ما عليها لضامن القيان، فأمر بإبطال هذه االضريبة، وتوعَّد من يقوم بجمعها بأنه سيلاقي جزاءً كبيرًا[١]، ثم عادت السلطات في دمشق إلى تحصيلها بعد وفاته في عهد ابنه المعظم عيسى[٢] (٦١٥- ٦٢٤ هـ /١٢١٨- ١٢٢٧م) ولمَّا لامه بعض الفقهاء على ذلك اعتذر بقلة المال، وشدة الحاجة إليه لدفع الفرنج [٣] .

ولا يعني هذا أن الإقبال على سماع الغناء وحضور مجالسه في الدولة الأيوبية قد بلغ حدًا يفوق ما وصل إليه أيام الدولة السابقة عليها وهي الدولة الفاطمية، أو اللاحقة لها وهي الدولة المملوكية، أو أن هذا العصر قد خلا من المواقف المتشددة تجاه الغناء وأهله، فقد ذكرت المصادر أن السلطات الأيوبية قد اتخذت في بعض الأحيان مواقف متشددة تجاه الغناء وأهله، ومن هذه المواقف ما كانت تتعرض له الجواري المغنِّيات في بعض الأحيان من النفي خارج البلاد، ومن هذا ما ورد في بعض المصادر من أن الظاهر غازي سلطان حلب[٤](٥٨٢ . ٦١٣هـ/ ١١٨٦- ١٢١٦م)عندما ألمَّ به مرض الوفاة فوَّض الأمور

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٢٣١، أبو شامة : ذيل الروضتين، تحقيق / السيد عزت العطار، دار الجيل ، ط ٢، بيروت ١٩٧٤، ص ١١١، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٣ / ٢٦٩.

(٢) هو شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، ونشأ بالشام، قرأ القرآن، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، كان عالمًا بعدة علوم فاضلا فيها، وهو رجل بني أيوب وعالمهم، ولي دمشق وتوابعها في حياة أبيه وبعد وفاته، توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ، تحقيق/ محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط ٤، بيروت ٢٠٠٣م،١٠ / ٤٧٢، ٤٧٣، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٤٩٤ . ٤٩٦.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ /٢٣٣، ابن كثير : البداية والنهاية ١٧ / ٧٥ .

(٤) هو أبو منصور غازي بن يوسف بن أيوب بن شادي، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، وسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر بن عوف، وحضر معظم الحروب مع والده، وولَّاه حلب وتوابعها سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م بعد أن أخذها من عمه العادل الأيوبي، كان ملكًا مهيبًا، حازمًا عادلا، محبًا للعلماء، ←←←

في حلب إلى خادمه شهاب الدين طغريل[١]، فعمل على محاربة مظاهر اللهو والمجون، ونهى عن شرب الخمر، وأمر بنفي المغنِّيات وأهل الفساد[٢].

ومع اعترافنا بأن ما قام به طغريل من محاربة مظاهر اللهو والمجون، ونفي الجواري المغنِّيات يُعدُّ من المواقف المتشددة تجاه الغناء وأربابه في حلب، إلا أن موقفه هذا يحمل في طياته دليلًا وضَّاحًا على مدى انتشار مجالس الغناء والموسيقى بها في عهد سيده الظاهر غازي، كما يدل أيضًاعلى كثرة الجواري المغنِّيات .

ومن المواقف المتشددة تجاه الغناء ما ورد في بعض المصادر من أن الملك الجواد يونس[٣]عندما ولي دمشق في سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م قام بإبطال المكوس والخمور، ونفى

توفي بقلعة حلب سنة ٦١٣هـ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/ ٦ . ٩، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق/ حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، مج٥ / ج١ /١٩٥.

(١) هو الأتابك شهاب الدين طُغْريل مملوك الظاهر غازي، من أصل أرمني، كان صالحًا عادلا، كثير المعروف، تولى أتابكية العزيز محمد بن الظاهر، وقام بأمور حلب خير قيام، وأحسن إلى أهلها، وظل في منصب الأتابكية إلى أن استقل العزيز بالملك سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، توفي سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ /١٠٠، ابن واصل : مفرج الكروب، تحقيق/ حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢م، ٥/ ٧٢، ٧٣، ابن العماد : شذرات الذهب، تحقيق / عبدالقادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير، ط ١، بيروت ١٩٩١م، ٧ / ٢٥٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٣٢٧، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات مج ٥ / ج١ / ١٩٩.

(٣) هو الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الأيوبي، كان شجاعًا ذا همة عالية، إلا أنه كان فاسد التدبير ضعيف الرأي، ملك دمشق سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م بعد وفاة الكامل محمد، ثم تنازل عنها للصالح نجم الدين أيوب وأخذ عوضًا عنها سنجار وعانة، فانتزعتا منه، وآل به الحال أن لجأ إلى الفرنج بعكا، ثم أخذه الصالح إسماعيل بن العادل منهم بمالٍ بذله، واعتقله وبعث إليه من خنقه في سنة٦٤١هـ . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٣٧٩،٣٨٠، ابن العميد :

المغاني[١]، وغير بعيد أن يكون الجواد أراد بموقفه هذا التقرب من أهل دمشق وبخاصة الفقهاء ليقفوا بجانبه في مواجهته للناصر داود حاكم الكرك(ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [٢] الذي أراد انتزاع دمشق منه[٣]. وأيًّا ما كان الأمر فإن هذه القرارات المتشددة تجاه الغناء وأهله لم تكن تستمر طويلًا، فسرعان ما كان يتوقف تنفيذها، وتعود الأمور إلى سيرتها الأولى .

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أنه كان لبعض العلماء مواقف متشددة من الغناء والموسيقى وصلت إلى حدِّ تحريمهما، ومن هؤلاء الفقيه الحنبلي عبد الغني المقدسي(ت٦٠٠هـ /١٢٠٣م) [٤] الذي اتخذ موقفًا متشددًا من الغناء والموسيقى، واعتبرهما

→→→

أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، ص٣٠، ٣١، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، تحقيق / محمد زينهم محمد، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩م، ٣ / ٢٠٥.

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان٢٢ / ٣٤٨، ابن كثير : البداية ١٧ / ٢٣٨، ابن دقماق : نزهة الأنام ص ٩٩.

(٢) هو الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل، ملك دمشق بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ثم انتزعها منه عمه الكامل محمد سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م وأعطاها للأشرف موسى، واقتصر حكمه على الكرك وأعماله، تقلبت به الأحوال، وجرت له خطوب طوال، توفي في قرية البويضاء على أبواب دمشق سنة ٦٥٦هـ . أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٠، ابن كثير البداية ١٧ / ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢/ ٣٤٨، ٣٤٩ .

(٤) هو عبدالغني بن عبدالواحد بن سرور المقدسي، ولد بجَمَّاعيل في سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وهاجر إلى دمشق وسمع بها، ورحل في طلب الحديث إلى بغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان، فأتقنه وتميَّز فيه وأصبح قيمًا بجميع فنونه، عارفًا بقوانينه وأصوله، توفي بمصر سنة ٦٠٠هـ. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ١٣٧ . ١٤١، أبو شامة : ذيل الروضتين ص٤٦، ٤٧، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢/ ١٢٠٣. ١٢٢١ .

من المنكرات التي يجب محاربتها وتطهير المجتمع منها، فكان كثيرًا ما ينكر ذلك، ويكسر آلات الغناء والطرب، ولم يقتصر على إنكار ما يصدر من عامة المجتمع، بل كان ينكر على أرباب السلطان أيضًا، فعندما علم أن بعض أبناء صلاح الدين قد صنعت لهم آلات الطرب وحملت إليهم، وأنهم مجتمعون في بعض بساتين دمشق، ذهب إليهم وقام بتحطيمها وتكسيرها(١)، وعندما زاد الإقبال على اللهو والغناء بين سكان دمشق في فترة حكم الملك الأفضل نور الدين على(٢)(٥٨٩ .٥٩٢ هـ/١١٩٣ـ ١١٩٦م) بالغ الحافظ عبد الغني في الإنكار على أرباب الملاهي، وحطَّم كثيرًا من آلات الغناء، وقد أثار تشدده غضب الأفضل وأعيان دمشق، فأرسل إليه قاضي دمشق يأمره بالحضور إلي مجلسه ليناظره في الدُفِّ والشَّبَّابة(٣)، فرفض الذهاب إليه، وأصر على موقفه من تحريم الغناء والموسيقى(٤).

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢ / ١٢٠٨، سير أعلام النبلاء، تحقيق / بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ، ط ١، بيروت ١٩٨٤م،٢١/ ٤٥٦، ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة تحقيق / عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض ٢٠٠٥م ، ٣ / ١٦.

(٢) هو الأفضل نور الدين علي بن يوسف بن أيوب بن شادي، ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ونشأ بها، كان فاضلا متأدبًا، يحب أهل العلم والدين، ويؤثر مجالسهم ويحترمهم، ملك دمشق وتوابعها بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م مدة يسيرة، ثم أخذها منه عمه العادل الأيوبي، كان قليل الحظ تقلبت به الأحوال إلى أن ملك في آخر حياته مدينة سميساط، وبها توفي سنة٦٢٢هـ /١٢٢٥م . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢/ ٢٧٦،٢٧٧، ابن واصل : مفرج الكروب ٤/١٥٥ . ١٥٧.

(٣) الشّبّابة :وهي الآلة المتخذة من القصب المجوَّف، ويقال لها : اليراع أيضًا، تسميةً لها باسم ما اتخذت منه وهو اليراع (القصب)، وربما عُبِّر عنها بالمزمار العراقي . القلقشندي : صبح الأعشى٢ / ١٤٤.

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢/ ١٢٠٩، ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ٣ / ١٧، ١٨ .

لكن على الرغم من هذه المواقف المتشددة التي كانت تتخذ في بعض الأحيان تجاه الغناء وأهله، إلا أن الناس حكامًا ومحكومين ظلُّوا على شغفهم به، وإقبالهم على حضور مجالسه، بل والشيء اللافت للنظر أن بعض العلماء ورجال الدين والتصوف لم يروا حرجًا في سماعه وحضور مجالسه في أوقات فراغهم، واتخذوه وسيلةً من وسائل التسلية والترفيه، وليس هذا فحسب بل وأجاد بعضهم فنون الغناء والموسيقى والعزف على آلاتها المختلفة، والتأليف في علم الموسيقى[١]، فعلى سبيل المثال ذكرت المصادر أن التاج البَلَطِي (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م)[٢] كان . مع وفور علمه . خليعًا ماجنًا، لا يتورع عن الانغماس في الملذات وغشيان مجالس الشراب والغناء والطرب، فكان يخرج إلى بعض المتنزهات بضواحي الفسطاط مع جماعة من أهل الخلاعة والمجون، وبصحبتهم مطرب يُغنِّيهم، وهو ثمل يتمايل من السكر[٣] .

ومما يذكر عنه أنه " حضر عنده يومًا بعض المطربين المحسنين، فغنَّاه صوتًا أطربه فبكى البَلَطِي ، فبكى المطرب، فقال له البَلَطِي : أمَّا أنا فأبكي من استفزاز الطرب،

---

(١) سيرد الحديث عن هؤلاء العلماء عند الترجمة لأرباب الغناء والموسيقى في هذا العصر.

(٢)هو عثمان بن عيسى بن منصور البَلَطِي، كان إمامًا نحويًا مؤرخًا شاعرًا، أصله من بلدة يقال لها: بَلَط بالقرب من الموصل، ولد بها سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، وانتقل إلى الشام وأقام بدمشق فترة يُدرِّس بها، فلما ملك صلاح الدين مصر انتقل إليها وحظي عنده، وجعل له راتبًا على جامع عمرو بن العاص لإقراء النحو والقرآن، توفي بمصر سنة ٥٩٩هـ . العماد : خريدة القصر، قسم شعراء الشام، تحقيق/ شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٩م، ٢ / ٣٨٥ . ٣٩١، ياقوت : معجم الأدباء، تحقيق / إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت ١٩٩٣م، ٤ / ١٦١٠- ١٦٢١، القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ١، القاهرة ١٩٨٦م، ٢ / ٣٤٤، ٣٤٥ .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٤/ ١٦١١.

أنت ما أبكاك ؟ فقال له : تذكرت والدي، فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى، فقال له البَلَطِي : فأنت والله إذن ابن أخي، وخرج فأشهد على نفسه جماعة من عدول مصر بأنه ابن أخيه ولا وارث له سواه" [١]. وقد ظهر ولع البَلَطِي بالغناء ومجالسه في اهتمامه بكتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، فاختصره في مختصر قال عنه القفطي: " اختصره اختصارًا جميلًا أحسن فيه" [٢] .

كما كان ابن الفارض(ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[٣]. الصوفي الشهير . يميل إلى سماع الغناء والموسيقى، ومما يروى عنه في هذا الصدد أنه كان يذهب إلى جوار له بالبهنسا[٤] فيغنين له بالدف والشبابة، وهو يرقص ويتواجد بينهن [٥] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٤ /١٦١٢، الصفدي : الوافي بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت ٢٠٠٠م، ١٩ / ٣٢٧ .

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢ / ٣٤٥ .

(٣) هو شرف الدين عمر بن علي بن مرشد، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وتفقه في المذهب الشافعي على والده وجماعة من علماء عصره، وألم بكثير من علوم الدين واللغة والأدب، ثم حبب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية، فتزهَّد وتجرَّد، ونبغ في عمل الشعر، توفي سنة ٦٣٢هـ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٤٥٤، ٤٥٥، ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٢٦١، ٢٦٨.

(٤) البهنسا : مدينة في صعيد مصر الأدني غربي النيل، كانت قاعدة لكورة كبيرة تسمى باسمها بعد الفتح الإسلامي، وهي الآن قرية تابعة لمركز بني مزار بمحافظة المنيا . ياقوت : معجم البلدان١ /٥١٦ ، ٥١٧، محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ق٢ / ج٣/ ص ١٦، ٣١١، ٣١٢ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٢٦٥، ٢٦٦محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي،منشأة المعارف، ط٣، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٥٠٥ .

ولم يكن الغناء في هذا العصر ضربًا من ضروب اللهو والترفيه فحسب، وإنما أصبح جزءًا من حياة الناس المادية والمعنوية، فمن خلاله كانوا يعبِّرون عن أفراحهم وأحزانهم؛ حيث ارتبط بالعديد من المناسبات السياسية والعسكرية والاجتماعية من تولية سلطان، أو تحقيق انتصار في موقعة من المواقع الحربية، أو عقد قرآن، أو ولادة طفل أو ختانه، أو شفاء سلطان من مرض أصابه، حيث تدق البشائر، وتعلق الزينات، وتمدَّ الأسمطة[١] وتقدَّم فيها الأطعمة المختلفة من ذبائح وحلوى ونحو ذلك، ثم يلقى الشعر ويؤدى الغناء المصحوب بالعديد من الآلات الموسيقية[٢]، كما استخدم الغناء في التشهير والتجريس، ومن ذلك ما ذكره ابن جبير من أنه شاهد أثناء وجوده في مدينة الإسكندرية سنة (٥٧٨هـ /١١٨٣م) اجتماع الناس بها لمشاهدة أسرى الصليبيين الذين " أدخلوا البلد راكبين على الجمال، ووجوههم إلى أذنابها، وحولهم المغاني تزفهم " [٣].

واللافت للنظر في هذا العصر أنه كان يتم استخدام الغناء والموسيقى في المآتم والجنازات، حيث تجتمع المغاني وتغنين على الدفوف أغاني تحتوي على مناقب الميت، وتدعو للحزن على فراقه، ومن ذلك ما حدث عندما توفي المعظم عيسى سلطان دمشق

---

(١) الأسمطة : مفردها سماط، وهو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، ويطلق أحيانًا على المائدة السلطانية. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت١٩٩٠م، ص ٩٢.

(٢) ينظر نماذج لهذه المناسبات في : ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب،تحقيق / خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٩٦م، ص٤٥٢،٤٤٦، ٤٧٧، ابن نظيف : التاريخ المنصوري، تحقيق / أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق١٩٨١م، ص١٢٠،١١٩،ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٥، ابن واصل: مفرج الكروب ٣/ ٢١٣ـ ٢١٥،٤/ ٢٨٣، المقريزي: السلوك ١/ ق٢ / ٢٨٩،٢٩٠.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٣١ .

سنة ٦٢٤هـ /١٢٢٦م حزن أهل دمشق عليه حزنًا شديدًا، وخرجت فتيات دمشق اللاتي لم يخرجن قط من خدورهن إلى ساحة القلعة والميادين العامة والأسواق، وقد شققن ثيابهن، ونشرن شعورهن، ومعهم الدرادك[١]، يلطمن عليه، وأقمن على ذلك شهرًا [٢] .

وما حدث في سنة ٦٤٨هـ /١٢٥٠م عندما تم نقل تابوت الملك الصالح نجم الدين أيوب[٣] من إحدى قاعات قلعة جزيرة الروضة[٤] إلى تربته التي بنيت بجوار المدرسة

(١) الدرادك : الدفوف الكبيرة، وهي دفوف النواحة . أحمد تيمور باشا: الموسيقى والغناء عند العرب، نشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ٢٠٢٢م ، ص ٩٩.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٩٠/٢٢، العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر العصر الأيوبي) تحقيق / محمود رزق، مركز تحقيق التراث، ط ٢، القاهرة ٢٠١٠ م، ٤ / ١٦٩.

(٣) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد، ولد بالقاهرة سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م ونشأ بها، كان ملكًا وافر الحرمة، عظيم الهيبة، استنابه أبوه على مصر في سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م لمَّا سار إلى الشرق، ثم انتقد عليه أمورًا فعزله، فلما استولى على بلاد الشرق ولاَّه عليها، وملك دمشق سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، وجرت له أمور واعتقل بالكرك، ثم أخذ مصر من أخيه العادل الثاني سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، توفي بالمنصورة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وهو مرابط لقتال الفرنج . سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان٢٢ /٤٠٩، ابن واصل : مفرج الكروب ٦/ ٨٠ ـ ٨٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٤ / ٥٦٢ . ٥٧٧ .

(٤) جزيرة الروضة : كانت محلة من محال الفسطاط، عرفت في بداية الفتح الإسلامي بالجزيرة، وبجزيرة مصر، ثم سميت أيام الفاطميين بجزيرة الروضة، وفي العصر الأيوبي اشتراها تقي الدين عمر وأوقفها على مدرسته منازل العز، ولما ملك الصالح نجم الدين أيوب مصر استأجرها مدة ستين سنة، وعمَّرها وبني بها قلعة الروضة، واتخذها مقرًا لحكمه، وأسكن بها مماليكه . ياقوت : معجم البلدان ٢ /١٣٩، ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ٢٧٨.

الصـالحية، وأقيم المـأتم بالـدفوف بـين القصـرين[١] ثلاثـة أيـام، وحضـره القضـاة وسـائر المماليك، وغلقت الأسواق بالقاهر والفسطاط [٢] .

ثالثًا . موقف صلاح الدين من الغناء ومجالس الغناء في عهده :

على الرغم من أن صلاح الدين عشق الجهاد حتى ملك عليه شغاف قلبه، فلم يكن له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، حتى هجر في محبته أهله وأولاده ووطنه وسائر ملاذِّه، فلم يركن إلى حياة الدعة والترف وسكنى القصور، وقنع من الدنيا بالعيش في ظل خيمة تضربها الريح يمنة ويسرة[٣]، إلا أن هذا لا يعني أبدًا أنه لم يأخذ قط نصيبه من الدنيا، أو لم يكن يسمح لنفسه بقدر من التمتع لا يرى فيه خروجًا على جادة الدين أو المبادئ والمثل التي كان يأخذ بها نفسه .

فقد عُرف عنه حضوره لنوع من الغناء والإنشاد الديني انتشر في هذا العصر بصورة ملحوظة، وهو مجالس السماع[٤] التي كان يقيمها الصوفية، ومن ذلك أنه لمَّا غادر مدينة

(١) هو فضاء كبير واسع بين القصرين : الكبير الشرقي، والصغير الغربي من قصور الخلفاء الفاطميين، يسمى بـ (بين القصرين).المقريزي: ٢/ ٥٧، ٥٨، ٨٥، ٤٢٧.

(٢) المقريزي : الخطط ٣ / ٤٦٧، السلوك ١/ ق٢ /٣٧١ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، تحقيق / جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط ٢، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٥٣، ابن أيبك: كنز الدرر ٧ / ١١٧.

(٤) مجالس السماع : هي حلقات الذكر التي كان يقيمها الصوفية، ويتناشدون فيه الأشعار بانتظام وحركات خاصة، ويتظاهر فيها البعض بالتواجد والرقص. لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٢٩، وعن مجالس السماع التي كان تعقد في الساحات المختلفة وفي خانقاه سعيد السعداء في العصر الأيوبي ويحضرها مشايخ الصوفية وغيرهم . ينظر: المقريزي : السلوك ١ / ق١ / ٢٤٩، المقفى الكبير٣ /٢٧٠، ٢٧١.

حلب في سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م متجهًا إلى دمشق مرَّ بمدينة حماة، فاستضافه ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر حاكمها، وأصعده إلى قلعتها، وصنع له طعامًا حسنًا، وأحضر له سماع الصوفية[١]، ونترك المجال للعماد الأصفهاني . وقد كان أحد الحاضرين . ليصف لنا ما حدث في هذا المجلس قال : " وحضرنا وأمير المدينة المنورة معنا، والسلطان قد أجلسنا بحضرته ... والنادي قد جمعنا، والشادي قد أسمعنا، والأغاريد تطرب، والأناشيد تعرب"[٢]، ولم يكتف صلاح الدين بحضور مجالس السماع التي كان يقيمها الصوفية، بل كان لشدة حبه لهم واعتقاده فيهم يحضرهم عنده في بعض الأحيان، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد حتى يفرغ [٣].

وكان أثناء مرضه الشديد الذي أصابه في مدينة حرَّان[٤] سنة ٥٨١هـ /١١٨٥م حريصًا على عقد مجالسه العلمية الحافلة التي كان يحضرها العلماء والأدباء، وإلى جانب هذا كان في بعض ساعات الليل والنهار يروِّح عن نفسه ويسليها عمَّا هي فيه من مشقات المرض وآلامه بالاستماع إلى الغناء العفيف الذي يسمو بالنفس، ويشيع السرور والبهجة، وقد أشار إلى هذا العماد الأصفهاني بقوله : " ولا يخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهةٍ ونبلٍ، وهم يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد... فتارةً في أحكام شرعيةٍ ومسائل

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥١، العيني : عقد الجمان ٢ / ١٠٥.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي،دار المنار ، ط ١، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٢٢٥، ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق / سعيد عاشور، جامعة أم القرى، السعودية ١٩٨٢م، ص ٢٢٥ .

(٤) حرَّان : مدينة مشهورة في شمال الشام على طريق الموصل والشام والروم، وموقعها الآن في جنوب شرق تركيا قرب الحدود السورية . ياقوت : معجم البلدان ٢ /٢٣٥، ٢٣٦، س . موسترس: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة / عصام محمد الشحادات، دار ابن حزم، ط١، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٢٥٠.

فقهيةٍ، وآونةً في صناعاتٍ شعريةٍ وألفاظٍ عربية ومعانٍ أدبيةٍ ... وربما استروح في بعض ساعات الليل والنهار إلى السماع لإشارة الأطباء به لأجل التفريج والإمتاع، فإن ظفرنا بمغرِّدٍ مغرب، ومُطْرِبٍ مُطْرِبْ، وصانع صوت، ومحسن لحن أحضرناه عنده، فربما راقه وشاقه ووَجَدَ به أفراحه"(١).

وقد كان لشدة تديُّنه وتقواه مهتمًا بمعرفة الحكم الشرعي في سماع الغناء، وكان يتناقش مع العلماء في هذا الشأن، روى الناصح الحنبلي (ت٦٣٤هـ /١٢٣٦م)(٢)أنه اجتمع مع صلاح الدين في القدس بعد فتحه بسنتين في مجلس ضم بعض العلماء، فسأله صلاح الدين عن مذهب الإمام أحمد في الشبابة، قال الناصح : " وباسطني في الكلام حتى ذكرت له حسن أصوات أهل أصبهان"(٣)، وقد كان الناصح وهو من شيوخ المذهب الحنبلي في دمشق يفتي بإباحة الغناء، ويرى أنه كالشعر فيه مذموم وممدوح، فما قصد به

(١) البنداري : سنا البرق الشامي (اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني) تحقيق / فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٦٨، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق / إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت ١٩٩٧م، ٣ / ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن نجم بن عبدالوهاب بن عبدالواحد الحنبلي، فقيه وواعظ شيرازي الأصل، دمشقي المولد والوفاة، يعرف بابن الحنبلي، ولد سنة٥٥٤هـ/١١٥٩م بدمشق، ونشأ بها وسمع من علمائها، وسمع ببغداد وأصبهان وهمذان ومكة وغيرها، واشتغل بالوعظ وبرع فيه، وحظي عند ملوك بني أيوب، ودرَّس بعدة مدراس، وترك العديد من المؤلفات، توفي بدمشق سنة ٦٣٤هـ . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٣٤١/٢٢، ٣٤٢، أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٦٤، ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ٣ / ٤٢٤ . ٤٣٨.

(٣) ابن رجب : المصدر السابق ٣ / ٤٢٧ .

ترويح النفوس، وتفريج الهموم، وتفريغ القلوب لسماع موعظة، وتحريك لتذكرة فلا بأس به، وهو حسن[١].

هذا ما ذكرته المصادر عن سماع صلاح الدين للغناء وحضوره لمجالسه، ورغم قلة هذه الإشارات المصدرية وندرتها، إلا أنها تظهر سماعه للغناء، ولا غضاضة في هذا فهو لم يُقْبِلْ بكليته على سماعه، ولم يبدد أموال الدولة على حفلات الغناء اللاهية الماجنة، كما كان يفعل غيره من الخلفاء والملوك، وإنما كان يستمع في أوقات فراغه إلى الغناء العفيف الذي لا يخرج على حدود الدين والأخلاق، والذي لا يحض على رزيلة، من أجل الترويح عن النفس، وطلبًا للراحة من عناء الجهاد ومشقاته، أمَّا أن يزعم الدكتور/ نبيل محمد عبد العزيز[٢] أن صلاح الدين قد عقد هدنة مع الصليبيين في سنة ٥٧٦هـ /١١٨٠م من أجل مغنِّية أحبَّها الأمير الأرتقي نور الدين محمد[٣] صاحب حصن كيفا[٤]، فهذا ما لا يمكن قبوله ولا التسليم به، ويمكن الرد عليه بما يلي :

أولًا . أن صلاح الدين لم يكن هو الذي طلب عقد الهدنة مع الصليبيين، وإنما الذي عرضها بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، الذي لم يجد . أمام مرضه المزمن وتدهور

(١) ابن رجب : المصدر السابق ٣/ ٤٢٩.

(٢) نبيل محمد عبد العزيز : الطرب وآلاته ص ١٦ .

(٣) هو نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، أمير حصن كيفا وغيره من ديار بكر، ولما فتح صلاح الدين آمد في سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م أعطاها له، تحالف مع صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين، توفي سنة ٥٨١هـ /١١٨٥م . البنداري : سنا البرق الشامي ص ١٧٤ . ١٧٦، أبو الفدا : المختصر ٣ / ٨٩ .

(٤) حصن كيفا : مدينة تركية في جنوب شرق تركيا مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، . ياقوت : معجم البلدان ٢ / ٢٦٥، س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ص ٢٥١ .

صحته، وانتصارات صلاح الدين المتتالية . بدًا من مصالحته، فقبل صلاح الدين العرض وعقد معه هدنةً في البر والبحر لمدة عامين [١].

ثانيًا ـ استجابة صلاح الدين لعقد الهدنة مع الصليبيين لم يكن بسبب هذه المغنية كما يزعم، وإنما لأنه رأى أن يوقف هجماته مؤقتًا ضدهم، لاسيما بعد ما أشيع من أخبار عن محاولاتهم تجديد التحالف بينهم وبين البيزنطيين[٢]، ولصعوبة موقفه السياسي والعسكري في بلاد الشام بسبب عدم اكتمال الوحدة التي كان ينشدها؛ لأن حلب لم تكن قد خضعت لسلطانه بعد، كما كان من المتعذر عليه الاستمرار في القتال ضد الصليبيين دون توقف؛ لما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة، وكذلك لما يصيب قواته المحاربة من عناء وإجهاد، وفضلا عن هذا حدوث موجة من الجفاف والجدب والوباء اجتاحت بلاد الشام لعدة سنوات[٣].

(١) البنداري : سنا البرق الشامي ص١٧٥، وليم الصوري : الحروب الصليبية، ترجمة/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م، ٤/٢٥٤، ٢٥٥، وقد علق وليم الصوري على هذه الهدنة بقوله : " وكانت الشروط التي تضمنها الاتفاق مهينة لنا بعض الشيء إذ كانت بلا تحفظات من ناحيتنا " . المصدر السابق نفسه.

(٢) البنداري : المصدر السابق نفسه، سعيد عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٩، القاهرة ٢٠١٠م، ٢ / ٥٢ .

(٣) اجتاح الجفاف مصر وبلاد الشام والعراق في سنتي٥٧٥،٥٧٤هـ/١١٧٩،١١٨٠م، واشتد الغلاء بسببه، ثم أعقبه وباء مات فيه أمم لا يحصون . ابن الأثير : الكامل١٠/ ٩٢، ٩٣، أبو شامة : الروضتين ٢/ ١٨، ١٩، وليم الصوري : الحروب الصليبية ٤/ ٢٥٤.

ثالثًا . أراد صلاح الدين بقبول الهدنة مع الصليبيين أن يتفرغ لتأديب السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني(١) الذي طمع في أملاكه، وتجرأ وهاجم حصن رَعْبَان(٢) في سنة ٥٧٥هـ /١١٧٩م، حتى لا يعاود التفكير في مهاجمة أملاكه(٣).

رابعًا . قضية المغنية قضية عائلية بين السلطان السلجوقي قلج أرسلان وصهره الأمير الأرتقي نورالدين محمد صاحب حصن كيفا(٤)، ورغم أن الأخير كان تابعًا للزنكيين

(١) هو السلطان عز الدين قلج أرسلان الثاني بن مسعود، من أشهر سلاطين سلاجقة الروم، حكم سلطنة السلاجقة في الفترة من (٥٥١ . ٥٨٨هـ/١١٥٦. ١١٩٢م) ، اشتهر بالعدل وحسن السياسة وسداد الرأي، وحفلت حياته بالجهاد ضد البيزنطيين، قسم بلاده بين أبنائه، ولم يبق له معهم إلا مجرد الاسم، أقام في آخر حياته عند ولده غياث الدين كيخسرو، وتوفي بقونية سنة ٥٨٨هـ /١١٩٢م . أبو شامة : الروضتين ٤/٣٤٩،٣٥٠، ابن واصل: مفرج الكروب ٢ / ٤١١، ٤١٢، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢ / ٨٥٨ .

(٢) رَعْبَان : مدينة وقلعة بالثغور بين حلب وسميساط غربي الفرات. ياقوت: معجم البلدان ٣ /٥١ .

(٣) طمع السلطان قلج أرسلان في حصني كيسوم ورَعْبَان، وقد كانا يخضعان لحكم صلاح الدين، فأرسل إليه يطالبه بالتنازل عنهما بحجة أنهما كانا سابقًا من أملاك السلاجقة، فأثار هذا غضب صلاح الدين وأرسل إليه يتوعده، فغضب قلج أرسلان وهاجم رَعْبَان في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، وما إن سمع صلاح الدين بذلك حتى أرسل قوة عسكرية مكونة من ألف فارس تحت قيادة تقي الدين عمر بن شاهنشاه، هاجمت قوات السلاجقة وفق خطة محكمة أربكت جموعهم وأوقعت الهزيمة بهم . ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق/ حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٨، ١٩، ابن الأثير : الكامل ١٠ / ٩٧.

(٤) ملخص هذه القضية : أن السلطان السلجوقي زوج ابنته لنور الدين محمد، ومنحه عددًا من الحصون التي تجاور بلاده، وبعد فترة من الزواج أعرض نور الدين عن زوجته السلجوقية، وتزوج من مغنية وقدَّمها عليها، فأرسلت إلى أبيها تشكو من سوء معاملته لها، فقرر قلج القيام بحملة عسكرية لتأديبه، والاستيلاء على بلاده، فاستجار بصلاح الدين الذي أرسل إلى قلج أرسلان يطلب منه أن يتخلى عن مهاجمته، وترددت الرسل بينهما دون أن تسفر عن نتيجة، فتوجه على ←←←

حكام الموصل، إلا أنه استجار بصلاح الدين وطلب نصرته، فوجد صلاح الدين في طلبه فرصة يستطيع من خلالها كسبه لصفه في صراعه مع أمراء الموصل.

ولم يقف الأمر بالدكتور نبيل عبد العزيز عند حدِّ اتهامه لصلاح الدين بأنه عقد هدنة مع الصليبيين من أجل مغنية، وإنما نسب إليه أنه قرَّب النور الإسعردي (ت٦٥٦هـ /١٢٨٥م)[١] الشاعر الخليع الماجن، وخلع عليه واتخذه نديمًا له[٢]، وقد فاته أن النور الإسعردي ولد في سنة (٦١٩هـ / ١٢٢٢م)، بينما توفي صلاح الدين في سنة (٥٨٩هـ)، أي أنه ولد بعد وفاته بثلاثين عامًا، فكيف يكون نديمًا له وهو لم يكن قد ولد بعد ؟ ويبدو

←←←

رأس قواته إلى بلاد الروم حتى وصل رَعْبَان، ولما بلغت أنباء تقدمه إلى مسامع قلج أرسلان تهيب الموقف، فأرسل بأحد أمرائه إلى صلاح الدين ليشرح له القضية، واجتهد رسول قلج في شرح القضية من الوجهة الدينية، وتم الاتفاق بينهما على أن يطلق نور الدين المغنية بعد سنة، وإذا لم يفعل ذلك تخلى صلاح الدين عن نصرته . ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠١، ١٠٢، ابن واصل : مفرج الكروب ٢ / ٩٦. ٩٨، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢ / ٤٧٧.

(١) هو محمد بن عبد العزيز بن عبدالصمد بن رستم الأسعردي، شاعر وأديب ولد سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، سكن دمشق، واتصل بالناصر يوسف سلطان حلب والشام، فقرَّبه وحظي عنده وجعله نديمًا له، ومدحه بقصائد عدة سماها (الناصريات) غلب على شعره الهزل والمجون والخلاعة، وقد أفرد هزلياته من شعره وضم إليها أشياء من نظم غيره في كتاب سمَّاه (سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون) توفي بدمشق سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م . العمري : مسالك الأبصارفي ممالك الأمصار، تحقيق/ كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، ط ١، بيروت٢٠١٠ م، ١٦ / ١٤٠ . ١٤٢، الكتبي : فوات الوفيات، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، ط ١، بيروت ١٩٧٣م، ٣ / ٢٧١ . ٢٧٦.

(٢) الطرب وآلاته ص ١٧.

أن الأمر قد التبس عليه وخلط بين صلاح الدين وبين حفيده الناصر يوسف بن العزيز محمد [١] سلطان حلب والشام، فهو الذي قرَّب النور الإسعردي واتخذه نديمًا .

وأيًّا ما كان الأمر فقد حضر صلاح الدين بعض مجالس الغناء بغرض الترفيه وإدخال السرور على النفس، والتخفيف من عناء الحروب وويلاتها، وكان حضوره وسماعه في الحدود التي تسمح بها مكانته كسلطان عظيم، ملك عليه حبه للجهاد كل عواطفه، وله فوق هذا دين يحميه من السقوط، وخلق ينهاه عن الإسفاف والتبذل، فمجالسه كما ذكر مؤرخوه كانت " مُنَزَّهةً عن الهُزْءِ والهَزْلِ" وكل ما يمكن أن يتعارض مع الشرع [٢]، ولم يصل به الأمر أن يعقد معاهدة مع الصليبيين من أجل مغنية، أو أن يقرِّب شاعرًا ماجنًا كما ذكر الباحث .

ولم يحل تدين صلاح الدين وحبه للجهاد دون انتشار مجالس الغناء والطرب في عهده في مصر والشام، واتخاذها وسيلة من وسائل الترويح عن النفس وتزجية أوقات الفراغ، فانتشرت هذه المجالس وكانت تعقد في الميادين والساحات، ويحضرها الخاصة والعامة، وقد أشار إلى هذا ابن جبير الذي شاهد خروج الناس إلي جزيرة الروضة في عهد صلاح الدين للتمتع بمناظرها الخلابة، وقضاء أوقات الفراغ والاحتفال بمختلف المناسبات،

---

(١) هو يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، ولد بقلعة حلب سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، تولى حكم حلب في سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وهو طفل صغير، فقامت جدته ضيفة خاتون بنت العادل بتدبير أمور الملك، واستقل بالحكم بعد وفاتها في سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، واتسعت مملكة حلب في عهده، ثم ملك حمص ودمشق وبعلبك، توفي بيد المغول سنة٦٥٩هـ/١٢٦٠م . اليونيني: ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، ط١، الهند ١٩٥٤م، ٢/١٣٤ـ ١٥٠، الصفدي : الوافي ٢٩ / ١٣٧. ١٤٣، الكتبي : فوات الوفيات ٤/ ٣٦١ . ٣٦٥.

(٢) العماد: الفتح القسي ص ٣٤٢، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ١٩ .

ومـن ثـم وصـفها بأنهـا " مجتمـع اللهـو والنزهـة " [١] كمـا أشـار العمـاد الأصـفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) . كاتب صلاح الدين ومستشاره، ورفيق حله وترحاله . إلى أنه حضر أثناء وجوده بمصر في سنة٥٧٢هـ /١١٧٦م بعض المجالس الغنائية التي كان يعقدها أعيان الدولة من الأدباء والقضاة في العديد من أماكن اللهو والنزهة المختلفة، وشارك فيها، فكان يخرج في أوقات فراغه معهم إلى جزيرة الروضة والجيزة، ومنازل العز [٢] للتنزه وقضاء أوقات سعيدة، وكان يشاطرهم اللذات وحضور مجالس الأنس والغناء، وأشار إلى هذا بقوله : " فتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني والشعر، والتنزه في الجزيرة والجيزة والأماكن العزيزة، ومنازل العز ... والنيل والمقياس ... والاستمتاع بالجواهر والأعراض..."[٣]. وقد مرَّ معنا من قبل أن التاج البَلَطِي(ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) كان يخرج مع جماعة من أهل الخلاعة والمجون إلى بعض المتنزهات بضواحي الفسطاط، وبصحبتهم مطرب يُغنِّيهم[٤].

ويبدو مما ورد في المصادر التاريخية أن الغناء والموسيقى لم يكونا منتشرين في أوقات اللهو والفراغ فحسب، وإنما كانا أيضا مظهرًا من مظاهر الاستعداد للحرب وإشاعة الحماس في نفوس المقاتلين، فقد طلب نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

(٢) منازل العز : دار مطلة على النيل، بنتها السيدة (تغريد) أم العزيز بالله الفاطمي، كانت من أحسن الأماكن، اتخذها الخلفاء الفاطميون متنزهًا لهم، نزل بها الأمير تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ثم اشتراها في سنة ٥٦٦هـ /١١٧٠م وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية . ابن واصل : مفرج الكروب ١/ ١٩٩، المقريزي : الخطط ٢ / ٣٣٤، ٣٧٠، ٣ / ٤٤٠ .

(٣) البنداري : سنا البرق الشامي ص ١١٥، ١١٧، أبو شامة : الروضتين ٢/ ٤٤٢، ٤٤٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٤ / ١٦١١ .

من العماد الأصفهاني أن يعمل على لسانه دوبيتات[١] في الغزو والجهاد يتغنى بها للتحريض على الجهاد، وإثارة حماس المقاتلين، قال العماد : " سألني نور الدين أن أعمل دوبيتات في معنى الجهاد على لسانه فقلت :

أقْسَمْتُ سِوىَ الجِهَادَ مَا لِي أَرَبُ والرَّاحَـةُ في سِـواهُ عِنْـدِي تَعَـبُ
إلاَّ بالجِـدِّ لا يُنَـــالُ الطَّلَـــبُ والعَيْشُ بـلا جِـدِّ جِهَـادٍ لَعِـبُ[٢]

كما كان للموسيقى العسكرية شأن كبير في الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، حتى أنه خصص لها مكانًا خاصًا يسمى(طبلخاناه)[٣]، وقد قام بعد إسقاط الدولة الفاطمية " بترتيب نوب الطبلخاناه ونظَّم شئونها " [٤]، وكانت فرقة الموسيقى العسكرية تصحب الجيش الأيوبي وتضرب على الطبول والأبواق وغيرها من الآلات في أوقات القتال تهييجًا للنفس وتقويةً للجأش، وإثارة حماس المقاتلين وبث روح الشجاعة فيهم [٥].

---

(١) الدوبيت : من فنون الشعر المعربة الخارجة عن وزن وتركيب البحور الستة عشر المعروفة في الشعر العربي، نقل من الفارسية إلى العربية، ولفظة (دوبيت) مركبة من كلمتين : الأولى (دو) وهي فارسية تعني اثنان، والثانية (بيت) وهي عربية . عمرو موسى باشا: الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، ط٢، دمشق١٩٧٢م، ص٥٧٤ .

(٢) العماد : خريدة القصر(بداية قسم شعراء الشام) ص ٤٢، أبو شامة : الروضتين ٢٤٢/٢ .

(٣) الطبلخاناه : لفظ فارسي معرب معناه : (بيت الطبل) وهو المكان المخصص لطبول الفرقة الموسيقية السلطانية، وتعني الطبلخاناه أيضا: الفرقة الموسيقية السلطانية. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ص ١٠٦.

(٤) كانت العادة في عهد صلاح الدين أن تدق الطبلخاناه في كل يوم ثلاث نوبات . المقريزي : الخطط ٣/ ١١٤

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢٧١، القلقشندي : صبح الأعشى٤ /٩، محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مطبعة وزارة التربية، أربيل ٢٠٠٣، ص ١٠٥

كما حرص صلاح الدين على أن يسود معسكره الفرح والسرور ليحدث نوعًا من التوازن مع الحياة الجهادية الجادة، فكان الغناء والضرب على الدفوف والطبول ضربًا من ضروب التسلية والترويح التي كانت تعرض على الجنود في معسكراتهم ليلًا في فترات الاستراحة بعد المعارك الحربية (١)، وليس هذا فحسب بل وفي ساحات المعارك أحيانًا عند توقف القتال؛ بقصد الترفيه وإدخال السرور، وتخفيفًا من عناء الحروب وويلاتها، وتحريضًا للجنود على مواصلة الحرب والجهاد، فقد كان المسلمون والصليبيون . على الرغم من الروح العدائية التي سادت العلاقات بينهما. تجري بينهما في فترات توقف الحرب الدائرة اتصالات سلمية تتخللها روح المودة والتآلف، وكانوا يشتركون في القيام ببعض ضروب التسلية واللهو، ومن بينها الغناء والرقص، ومن ذلك ما حدث في سنة ٥٨٥هـ/١١٩٠م أمام أسوار مدينة عكا، عندما طال أمد القتال بين المسلمين والصليبيين، ولم تسفر المواجهات الحربية بينهم عن نتيجة ما، سئم الجنود من الجانبين القتال، وكانوا قد أنس بعضهم ببعض لطول الفترة وكثرة المعاشرة، فكانوا يتركون القتال، ويتجاذبون الأحاديث، ويتبادلون الطرائف والنوادر، وربما انصرف بعضهم إلى سماع الغناء، وانصرف البعض الآخر إلى مشاهدة الرقص، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة (٢).

ويمكننا اعتمادًا على هذا الخبر أن نستنتج وجود بعض من يجيدون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ضمن القافلة الضخمة التي كانت ترافق الجيش الأيوبي من الباعة والتجار والصناع وغيرهم لاسيما في الحملات الطويلة الأمد التي كان يقودها صلاح الدين(٣)، ومما يعزز ما ذهبنا ما ذكرته المصادر المعاصرة . عند حديثها عن الاجتماعات

(١) نظير حسان سعداوي : جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٥٦م، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) العماد : الفتح القسي ص ١٦٦، ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٦٩.

(٣) المقريزي : السلوك ١/ ق ١ / ٩٤ .

والمحادثات التي كانت تجري بين الملك العادل الأيوبي وريتشارد ملك إنجلترا أمام مدينة عكا من أجل توقيع هدنة بين الطرفين . من أن ريتشارد في أحد هذه الاجتماعات طلب من الملك العادل أن يسمعه شيئًا من غناء المسلمين، فاستجاب العادل لرغبته، وأحضر إلي مكان الاجتماع مغنيةً تضرب بالجنك[١] فغنَّتهما بارع الألحان، فاستحسن ريتشارد ذلك، وسر سرورًا كبيرًا [٢]، كما أن معسكر صلاح الدين كان يضم بعض الأطباء الذين تميَّزوا في فنون الموسيقى والغناء، ومن هؤلاء الطبيب الأندلسي يحيى بن إسماعيل البيَّاسي[٣] (ت٥٧٤هـ/ ١١٧٨م)الذي كان من أطبائه المقربين الذين رافقوه في حروبه التي خاضها ضد الصليبيين، وقد كان البيَّاسي . إلى جانب إتقانه للصناعة الطبية . متميزًا في علوم الموسيقى، خبيرًا بصنع آلاتها، جيد العزف عليها[٤] .

رابعًا . اهتمام خلفاء صلاح الدين بمجالس الغناء والموسيقى :

إذا كان صلاح الدين قد اشتهر بحبه للجهاد، وعزوفه عن الدنيا ومتعها كما ذكرنا، فإن نزعة بعض خلفائه من الملوك الأيوبيين كانت إلى الترف أقوى منها إلى التقشف، فسلكوا مسلكًا غير مسلكه، وتخلقوا بغير أخلاقه، فأحاطوا أنفسهم بحياة مترفة ناعمة لاهية،

(١) الجنك : كلمة فارسية معربة معناها (زخم) وهو آلة موسيقية وترية، يختلف شكله عن العود، ورأسه ممال إلى أسفل، وهو على نوعين : أعجمي ومصري . القلقشندي : صبح الأعشى ٢ / ١٤٤، نبيل محمد عبدالعزيز: الطرب وآلاته ص ١٢٦، حاشية ٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل١٠ /٢١٠، ابن شداد : النوادر ص ٣٠٠، نظير سعداوي : جيش مصر ص ١٠٥ .

(٣) نسبة إلي بيَّاسة، وهي مدينة كبيرة بالأندلس تتبع كورة جيَّان . ياقوت : معجم البلدان ١/ ٥١٨ ، وسنترجم له عند الترجمة لمشاهير أرباب الغناء والموسيقى في هذا العصر .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م، ص ٦٣٧.

وزادوا مـن الأخـذ بأبهـة الملـك ورسـومه، فشـيدوا القصـور النزهـة، وأحاطوهـا بالحـدائق والبسـاتين[١]، واتخـذوا الخـدم والغلمـان والجـواري، وكانـت نفوسـهم تميـل نحـو الاسـتمتاع بمباهج الحياة ومتعها وملذاتها، واقتناص أوقات الفراغ والسرور في عقد المجالس العلمية والأدبية تارة، وفي سماع الغناء والموسيقى تارة أخرى، وقد شجعهم على ذلك حياة الترف والرخاء التي عاشها الكثير منهم، فأقبلوا على الاهتمام بالغناء، وأحاطوا أنفسهم بأربابه، واهتم بعضهم بامتلاك الجواري اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية[٢]، وليس هذا فحسب، بل استدعى بعضهم العلماء المتميزين في الموسيقى والألحان لتعليم مماليكهم وجواريهم أصول الغناء والموسيقى[٣] .

---

(١) ذكرت المصادر التاريخية في هذا الصدد أن الملك الأشرف موسى بن العادل (ت٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) بنى القصور الحسنة في الرُّها وغيرها من مدن الشرق، وبنى في دمشق قصرين : أحدهما يعرف بـ (الدهشة) والآخر بـ (صفة بقراط) . ابن واصل : مفرج الكروب ٥/ ١٤٣، ١٤٤، ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٣٠٨.

أمَّا السلطان الكامل محمد بن العادل (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) فقد بنى بجزيرة الروضة قصرًا شاهقا، ومقعدًا يسمى (البانياسي) كان ينزل بهما عندما يذهب إليها للتنزه . ابن واصل : مفرج الكروب ٥/ ٢٧٨، ٦/ ٨٤ .

وكان الصالح نجم الدين أيوب (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) كان مغرمًا بتشييد العمائر، وبناء القصور والمناظر، فبنى قصورًا نزهة بجزيرة الروضة أحاطها بالبساتين التي غرس فيها مختلف الأشجار والرياحين، وبنى قصرًا عظيمًا بجوار جامع ابن طولون فيما بين القاهرة والفسطاط، سمَّاه (الكبش) وبنى مدينة الصالحية، وشيد بها قصورًا ومناظر، كان ينزل بها عندما يخرج للصيد والنزهة .ابن واصل : مفرج الكروب ٥/ ٢٧٨، أبو الفدا : المختصر٣/ ٢١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ٤/ ١٠٥، ابن أيبك : كنز الدرر ٧/ ٢١٥، العمري : مسالك الأبصار ١٠ / ٦٣٥، ٦٣٦، ابن دقماق : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص ٩٩ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١ / ٤١١، ٤١٢ .

كما كانت الجواري المغنِّيات من بين الهدايا النفيسة التي حرص بعضهم على تبادلها فيما بينهم، فقد أهدى الملك الناصر داودحاكم الكرك(ت٦٥٦هـ /١٢٥٨م) إلى العادل الثاني[١]سلطان مصر(٦٣٥ .٦٣٧هـ /١٢٣٧. ١٢٣٩م)عددًا من الجواري المغنِّيات اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية، وعددًا من الجواري الراقصات، فأعجب العادل الثاني بهدايا الناصر داود وعوَّضه عشرة أمثالها [٢].

والجدير بالذكر في هذا السياق أن الاهتمام بامتلاك الجواري المغنِّيات لم يقتصر على سلاطين البيت الأيوبي فحسب، وإنما كان لبعض خواتينه اهتمام بامتلاكهن أيضًا، فقد ذكرت المصادر التاريخية المعاصرة أنه كان برفقة ضيفة خاتون ابنة العادل الأيوبي[٣]عندما زُفَّت إلى زوجها الظاهر غازي سلطان حلب من الجواري والوصائف والإماء والحرائر ما يحملهن مائة جمل، وكان في خدمتها مائة جارية كلهن مطربات،

(١) هو العادل الثاني سيف الدين أبو بكر بن الكامل محمد، ولد بالمنصورة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، تولى حكم مصر سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م بعد وفاة أبيه، استمر حكمه سنتين وشهرين، كان خلالهما منصرفًا إلى حياة اللهو واللعب والمجون، وأسرف في نفقاته فبدد ما في خزائن مصر من الأموال، فاستاء منه كبار الأمراء، وكاتبوا أخاه الصالح نجم الدين، فقدم إلى مصر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م وأخذها منه واعتقله، توفي معتقلا سنة٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٨٤ . ٨٦، ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ١٧٤، ١٧٥، ٢٦٣ .

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص٩٩، المقريزي : السلوك ١ / ق ٢ ص ٢٧٥.

(٣) هي ضيفة خاتون ابنة العادل الأيوبي، ولدت بقلعة حلب في سنة٥٨١هـ/ ١١٨٥م، تزوجها الظاهر غازي بن صلاح الدين في سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، وأنجب منها ابنه العزيز محمد الذي تولى حكم حلب في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وبعد وفاته تولى ابنه الناصر يوسف حكم حلب وهو طفل في سن السابعة، فملكت جدته ضيفة خاتون أمور حلب ست سنين، تصرفت خلالها في أمورها تصرف السلاطين، وقامت بذلك أحسن قيام، توفيت بقلعة حلب سنة٦٤٠هـ / ١٤٤٢م . ابن واصل : مفرج الكروب ٤/ ٣١٢، ٣١٣، أبو الفدا : المختصر ٣ / ٢٠٧، ٢٠٨ .

ويُجِـدْنَ العـزف علـى الآلات الموسـيقية، ومائـة جاريـة أخـرى يعملـن أنـواع الصـنائع البديعة[١]، ولا ريب أن هذا الخبر دال أوضح دلالة على كثرة عدد الجواري اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية المختلفة، وعلى حياة الترف والرفاهية التي كانت تتمتع بها بعض خواتين البيت الأيوبي، وإقبال بعضهن على سماع الغناء والموسيقى، وحرصهن على اقتناء الجواري المغنيات.

أعود فأقول أقبل بعض سلاطين بني أيوب على سماع الغناء، وأقاموا المجالس الغنائية الحافلة بغرض التسلية والترفيه، وتزجية أوقات الفراغ، وفي هذا الصدد ذكرت المصادر المعاصرة عن العزيز عثمان بن صلاح الدين سلطان مصر(٥٨٩ . ٥٩٥هـ /١١٩٣. ١١٩٩م) أنه شغف بسماع الغناء وحضور مجالسه، وقد روي عنه أنه أحب في شبابه قينةً [٢]وشغف بها حتى شغلته عن مصالحه، فبلغ ذلك والده فأمره بتركها، فشقَّ ذلك عليه، غير أنه لم يجرؤ على الاجتماع بها، فلما طال البعد بينهما أرسلت إليه مع بعض الخدم كرةً من العنبر، فلمَّا كسرها وجد في وسطها زِرَّ ذهب، فلم يعرف مقصودها من ذلك، فسأل القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ /١١٨٠م) ففسر له ما أرادته بقوله :

أهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر دقيق اللّحام

فالزر في العنبر معناهما زر هكذا مستترا في الظلام[٣]

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ٣ / ٢١٤، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات مج ٥ / ج ١/ ١٢٦.

(٢) ذكر العمري أن هذه الجارية كانت تسمى (سرور) وأنها كانت ملكًا لامرأة بالقاهرة، وسنترجم لها عند الحديث عن مشاهير أهل الغناء . مسالك الأبصار ١٠ / ٦٣٥ .

(٣) القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل، تحقيق/ أحمد أحمد بدوي، دار المعارف، ط١، القاهرة ١٩٦١م،١/ ١٠٥، ١٠٦، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ١٦١.

وزاد إقبال العزيز عثمان على الغناء ومجالسه بعد أن ولي السلطنة، فكان يعقد مجالس الأنس والطرب في بلاطه، ويستدعي إليها ندماءه ومقرَّبيه من الأدباء وغيرهم، ومن هذه المجالس هذا المجلس الذي عقده وحضره عدد من الأدباء، وكان قد أهدي إليه مملوك أشقر من القفجاق، فقال لمن حضر مجلس أنسه من الأدباء : " نجعل هذا المملوك ساقينا اليوم "، فلما استقر مجلس الأنس والطرب أمرهم أن يقولوا فيه شعرًا، فلم يحضر لهم ما يرضونه، فقالوا له : إن الوزير نجم الدين بن المجاور[1] فارس هذا الميدان، وما لهذا إلا خاطره . فقال : " نُسِّره بالمشاركة في هذا الشأن، ولا نضيره بالاستدعاء للحضور على ما لا يريده " فأمر بالكتابة إليه في ذلك، فوصل جوابه بهذه الأبيات :

غُصْنٌ من الفِضَّةِ قَدْ أوْرَقَا	بالتبرِ مَنْ فَازَ بهِ وُفِّقا
رَوَّاه سَاقِي الحُسْنِ مِنْ مَائِهِ	فَبَانَ في أَعْلاهُ مَا قَدْ سَقَى
ومنْتَهى الأَحْرفِ مِنْ خَطِّهِ	في جانبي صُدغيه قَدْ عُرِّقا
يا حُسْنَه نونًا بماءٍ جَرَى	ودار كالعقرب كي يُتَّقَى
فاغتنموا بدرًا بَدَا كاملاً	في شفق من قبل أن يُمْحقا
لا أبصرتْه مقلة ذاويًا	ولا رأت زخرفه مُحْرَقا

(١) هو نجم الدين يوسف بن الحسين بن محمد، كان أديبًا فاضلا، ولد بدمشق ونشأ بها ملتزمًا قراءة القرآن وإقرائه، واتخذ مكتبًا لتعليم الصبيان، ثم سمت همته فأصبح مؤدبًا لأولاد الخاصة بدمشق، اختاره صلاح الدين معلِّمًا لابنه العزيز عثمان، فأنس به وقرَّبه وجعله من خواص بطانته، ثم استوزره وفوَّض إليه أمور دولته، توفي بمصر سنة٦٠١هـ/ ١٢٠٤م . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢١ / ٢٦٣، ابن سعيد : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة دون تاريخ، ص ١٩ . ٢٥ .

فلما قُرِأتْ على الملك العزيز طرب بها، واهتز لمعناها، وأمر المغنِّي بالغناء فيها، ثم قال للخازن : " أحضر جميع ما أهدي إلينا مع هذا المملوك، فأُحْضِر وقُوِّم، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار مصرية . فقال : لو أن نجم الدين كمَّل أبياته عشرة لفاز بجملتها، ولكن يأخذ منها ستة آلاف وتقتسمون الباقي ... ثم قال للمملوك : كن أنت الرسول إليه بهذا، وأنت من جملة ما حبوناه به " (١) .

واللافت للنظر في هذا السياق أن العزيز عثمان لم يكن يستمع إلى الغناء بالعربية فقط، وإنما كان يستمع إليه بغير العربية، ويطرب لسماعه، ويهتز له، ومما يروى عنه في ذلك أنه غُنِّيَ بين يديه دوبيت بالعجمية، معناه : أنه جعل الليل برددارًا(٢) للحبيب ليحجب الشمس، فاستحسن المعنى وطرب به، وطلب من وزيره ابن المجاور، أن يصنع في هذا المعنى شعرًا، وأن يأمر الشعراء بالعمل في ذلك، فنظم ابن المجاور على البديهة :

قَالَ لَهُ الليلُ انصَرِفْ رَاشِدًا فإنَّهُ اسْتَخْدَمَنِي بَرْدِدارا

ثم طلب من الشعراء أن ينظموا في هذا المعنى، فنظم كل منهم على البديهة ما ورد على خاطره، ودخل عليه ابن النبيه المصري (٣) فطلب منه أن يعمل في ذلك، فاستمهله فأبى، فقال على البديهة :

---

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ص ٢١ . ٢٣ .

(٢) البردَدار : لفظ فارسي مكون من (برده) بمعنى الستارة، و(دار) بمعنى الممسك، أي الممسك بالستارة وهو الحاجب . حسن حلاق : المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت ١٩٩٩م ، ص ٣٨ .

(٣) هو كمال الدين علي بن محمد بن الحسن بن يوسف المصري، كاتب شاعر، ولد بمصر سنة٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، ونشأ بها، كان من مفاخر الشعراء المصريين، مدح ملوك بني أيوب، وتولى ديوان الخراج والحساب بمصر، ثم رحل إلى نصيبين واتصل بالملك الأشرف موسى وحظي عنده، فولاه ديوان الإنشاء، توفي بنصيبين في سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م . ابن الشعار : قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق / كامل سلمان الجبوري،دار الكتب العلمية،ط ١،بيروت٢٠٠٥م، مج ٣ /ج ٤ / ٢٢٦ وما بعدها، الكتبي : فوات الوفيات ٣ / ٦٦ . ٧٣.

قُلْتُ للَّيلِ إذ حَبَانِي حَبِيبًا وَغِناءً يَسْبِي النُّهَى وَعُقارَا

أنْتَيالَيْلُ حاجِبِي فَامْنَعِ الصُّبْ حَ وكُنْ أَنْتَ يا دُجَى بَرْدِدارا [١]

أما الملك الأفضل نور الدين علي سلطان دمشق (٥٨٩ . ٥٩٢هـ /١١٩٣ـ ١١٩٦م) فذكرت المصادر المعاصرة عنه أنه أقبل بعد وفاة أبيه على اللعب وسماع الأغاني والأوتار ليله ونهاره، واحتجب عن الرعية، فسمي بالملك النوَّام[٢].

ولا ريب أن تذوق الأفضل للشعر وبراعته في نظمه كان له تأثيره في إقباله على سماع الغناء، وقد كان كما ذكر مؤرخوه فاضلًا متأدبًا ينظم الشعر الجيد[٣]، ومن ثم فإن إقباله على سماع الغناء كان إقبال المتذوقين الدارسين، فكان يتذوق ما يسمعه من الغناء ويطرب له، ويهزه الطرب فينظم على وزنه ورويه، ومن ذلك ما ذكره عنه ابن سعيد من أن أحد المغنين غنَّي بين يديه بهذه الأبيات :

يُطالبني قلبي بكم كلَّ سَاعَةٍ إذَا أفْلَسَ المديونُ لَجَّ المُطالِبُ

وأشْتَاقُكم شَوْقَ الذي مَسَه الظَّما وقَدْ مُنِعتْ ظُلْما عليه المشاربُ

إذَا رُمْتُمْ قَتْلِي وأَنْتُمْ أحِبَّتِي إذن فالأَعَادِي واحدٌ والحَبَائبُ

فطرب بها الأفضل وزاد عليها :

وجرَّبْتُ مِنْكُمْ مَا نَهَى القَلْبُ عنكُم فَعُدْتُ وهل تَنْهى المحبَّ التجاربُ [٤]

---

(١) ديوان ابن النبيه المصري، تحقيق/ عمر محمد الأسعد، ط ١، دار الفكر، دمشق ١٩٦٩م، ص ٣٩١، ابن ظافر : بدائع البدائه، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ٢٠٠٧م، ص ١٨٨، ١٨٩.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٢٩، ابن واصل : مفرج الكروب ٣/ ٤٠ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ٣/ ٣٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٤٢٠ .

(٤) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠١، ٢٠٢ .

ولكي نكون منصفين ولا نحمِّل النصوص أكثر مما تحتمل علينا أن نقرَّ بأن إقبال الأفضل على اللهو وسماع الغناء لم يكن دأبه طول حياته، وإنما كان نزوةً عابرةً من نزوات الشباب، وأنَّه كان بتحريض من عمه العادل الأيوبي الذي أراد أن يفسد عليه أمور مملكته، فحسَّن له هذا الأمر ورخصَّ له فيه، والدليل على هذا أنه حضر عنده ليلة وهو في مجلس شرابه ولهوه، فجلس وسمع الغناء، واستحسن المجلس، وأعجب بإسراف الأفضل وانغماسه في اللهو والشراب، وحرَّضه على التظاهر بذلك بقوله : " أي حاجة بك إلى التكتم، أعلن بما أنت فيه وافعله ظاهرًا، فلا خير في اللذات من دونها ستر" فقبل الأفضل وصيته وتظاهر بلذاته، وانشغل بها عن تصريف شئون مملكته، ثم ما لبث أن عاد إلى رشده، وأقلع عمَّا كان عليه، وتاب وندم على تفريطه، وأزال المنكرات، وأراق الخمور، وأقبل على العبادة والزهد، فلبس خشن الثياب، واتخذ لنفسه مسجدًا يخلو فيه للعبادة، وشرع في نسخ مصحف بيده، وواظب على الصيام والقيام، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل[1].

أما المعظم عيسى سلطان دمشق (٦١٥ . ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ـ ١٢٢٦م) فكان . إلى جانب اهتمامه بالعلم وعنايته بالعلماء وحضور مجالسهم . يميل إلى سماع الغناء والموسيقى، وكانت مجالسه لا تخلو من الأنس والطرب والغناء، وقد قرَّب أرباب هذا الشأن وأحاطهم بعنايته، وممن قرَّبهم واختصهم بحضور مجالس أنسه وطربه رشيد الدين علي بن خليفة الخزرجي (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) الذي كان ـ إلى جانب تفوقه في العلوم الطبية . بارعًا في مجال الغناء والموسيقى، حتى روى عنه أنه لم يكن في زمانه من يعرف

(١) أبو شامة : الروضتين٤/ ٤٢٤، ابن واصل : مفرج الكروب٣ /٤٠، أبو الفدا: المختصر ١١٤/٣.

الموسيقى واللعب بالعود مثله، ولا أطيبَ صوتًا منه، فأعجب به المعظم وقرَّبه وألحقه بخدمته، فكان لا يفارقه في أكثر أوقاته [١] .

وممن قربهم أيضًا قاضي قضاة دمشق شمس الدين الخويى[٢](ت٦٣٧هـ /١٢٣٩م) الذي كان . مع فضيلته وعلو مكانته في الفقه الشافعي . يتقن فنون الغناء والموسيقى، وليس هذا فحسب وإنما أتقن أيضًا صناعة بعض الآلات الموسيقية والعزف عليها، فقد أتقن صناعة آلة القانون[٣] وأجاد العزف والغناء عليها، ولمَّا سمع به المعظم استحضره إلى مجلس أنسه، ولعب بين يديه بالقانون، وغنَّى عليه، ونادمه فأعجب بحسن حديثه، وسحر منادمته، فجعله من خواص بطانته، وأمره بملازمته في أوقات خلواته ومجالس شرابه، وذلك قبل أن يلي قضاء القضاة، فلما ولي القضاء انقطع عن الحضور، فاشتاق المعظم إلى سماع غنائه، فاستدعاه وطلب منه الحضور، فاعتذر بقوله : " إذا أمر السلطان بهذا امتثلت أمره وفعلت، ولكن لا يكون هذا إلا بعد عزلي عن منصب القضاء والحكم بين

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، تحقيق/ نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م، ص ٧٣٩ .

(٢) نسبة إلى خُوَيِّي، وهي مدينة بأذربيجان من إقليم تبريز، كثيرة الخيرات والفواكه. ياقوت: معجم البلدان ٢ / ٤٠٨.

(٣) القانون : آلة موسيقية وترية؛ تشتمل على صندوق مصوت شكله الهندسي مربع شبه منحرف، وعليه مجموعة من الأوتار، وقد احتل مكانًا مرموقًا بين الآلات الموسيقية بما يتميز به من مساحة صوتية واسعة تغطي كافة مقامات الموسيقى العربية . حسين على محفوظ : معجم الموسيقى العربية، ص ٤٤ ، ٤٥ .

النـاس، وتوليـة قـاض غيـري، فـإنني لا أجمـع بـين منصـب القضـاء ومـا يضـاده أبـدًا " فأعجب المعظم به وسُرَّ منه وقال : " بل نرجح مصلحة المسلمين على غرضنا " (١) .

وكان الأشرف موسى بن العادل (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م)(٢) ـ رغم ما اشتهر عنه من الصلاح والتقوى . يميل إلى حياة اللهو والترف، والاستمتاع بالحياة وملذاتها، فبنى القصور النزهة في الشرق ودمشق من أجل النزهة والتمتع بملاذ الحياة، وأقبل على عقد مجالس الأنس والطرب حتى وصفه مؤرخوه بأنه كان " مَغْرِيًا باللهو واللذة، وسماع الأغاني والأمور الملهية " (٣) .

وقد كان شديد الطرب إلى الغناء، مفرطًا في عطاياه لأهله إذا طرب أو لها، ومما يروى عنه في هذا الشأن أنه طرب ذات ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال

(١) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق / سيهل زكار، دار الفكر، بيروت ٢/ ٧٣٤، النـويري : نهايـة الأرب، تحقيـق / نجيـب مصـطفى فـواز، دار الكتـب العلميـة، ط١، بيـروت ٢٠٠٤م، ٢٩ / ١٧٧، ١٧٨ .

(٢) هو أبو الفتح موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، ولد سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م بمصر، ولاه أبوه في بداية أمره مدينة الرها، ثم ملك خلاط ونصيبين وسنجار والخابور ومعظم بلاد الجزيرة واتسع ملكه، تنازل في آخر حياته عن أملاكه في الشرق لأخيه الكامل في مقابل دمشق واتخذها دار إقامة، وبني بها دارًا للحديث، توفي بدمشق سنة ٦٣٥هـ . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٣٥١، ٣٥٦، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣٣٠ـ ٣٣٦، ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ١٣٧ . ١٤٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب٥ / ١٤٣،١٤٤، أبو الفدا: المختصر ٣ / ١٩٥، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٤ / ١٩٦.

لصاحب الملهى : " تمنَّ عليَّ " ، فقال صاحب الملهى : تمنيت مدينة خِلاط [١]، فأعطاها له، ولما توجَّه لأخذها عوَّضه عنها نائبها بمبلغ كبير من المال[٢]، ورغم ما قد يكون في هذه الرواية من مبالغةٍ واضحةٍ، إلا أنها تدل على الحالة التي كان يصل إليها الأشرف في جلسات أنسه، وعلى كرمه وكثرة عطائه، حتى روي عنه أنه كان لكثرة عطائه لا يوجد في خزائنه شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا يزال عليه الديون للتجار وغيرهم[٣].

ومما يدل على ولعه بالاستمتاع بالحياة ومتعها، وانهماكه في الملذات وسماع الأغاني، ما ذكره ابن ظافر الأزدي قال: " كنت عند الملك الأشرف في سنة ٦٠٣هـ /١٢٠٦م بالرُّها [٤]، وقد وَرَدْتُ إليه في رسالة من أبيه العادل، فجعلني بين سمعه وبصره، وأنزلني في بعض دوره بالقلعة، بحيث يقرب عليه حضوري في وقت طلبتي، أو إرادة الحديث معي، فلم أشعر في بعض الليالي . وأنا نائم في فراشي . إلا وهو قائم على رأسي، والسكر قد غلب عليه، ... وقد حفَّتْ به مماليكه ... فقمت مروَّعًا، فأمسكني، وبادر بالجلوس إلى جانبي، ومنعني من القيام عن الوساد ... ثم قال : غلبني الشوق إليك، ولم

---

(١) خلاط : مدينة تركية مشهورة في منطقة الأناضول الشرقية، تطل على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة وان، كانت سابقًا قصبة أرمينية الوسطى . ياقوت : معجم البلدان ٢ / ٢٨٠، ٢٨١، س. موسترس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص ٣٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣٣٤، الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق / مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٥٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ١٣٨، ١٣٩، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣٣٣ .

(٤) الرُّها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، في جنوب تركيا شمال الحدود الدولية مع سوريا بحوالي٥٠كم، وهي من المدن التاريخية والسياحية في تركيا. ياقوت : معجم البلدان ٣ / ١٠٦، عبدالحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلامية ص ٢٥٧، ٢٥٨ .

أرد بإزعاجك التثقيل عليك، ثم استدعى من بمجلسه من المغنين فحضروا، وأخذوا من الغناء فيما يملأ الأسماع التذاذًا، ويجعل القلوب من الوجد جذاذًا " (١).

كما ذَكَر أيضًا أنه مَرَّ به في سنة ٦٠٧هـ /١٢١٠م وهو ذاهب إلى الموصل في رسالة، فلما عاد استضافه نحو شهر بالرُّها، وجرت له عنده بدائه كثيرة، من جملتها أنه غُنِّىَ بين يديه بشعر أعجمي ليس على أوزان العروض فأعجبه، واقترح عليه أن ينظم له على وزنه؛ ليُغَنَّى له به ما يفهمه، فنظم له بالمعنى الذي اقترحه مقطوعة شعرية منها :

مَــا لَــذَّةُ المَعنــى إلاَّ مُــدَامَـتُــهُ

ووصْـلُ مــن عليــه قَـامَــتْ قِيَامَتُــهُ

ومعها أبيات أخرى تركنا ذكرها خوف الإطالة، وأرسلها إليه وهو في مجلس أنسه مع مملوك له، فعاد مخلوعًا عليه خلعةً خاصةً (٢). ويتضح مما أورده ابن ظافر أن مجلس أنس الأشرف موسى كان يضم عددًا كبيرًا من المغنين، وأنه كان يطرب لسماع الغناء لمجرد كونه ضربًا من ضروب اللهو والمتعة، حتى ولو كان بشعر أعجمي لا يفهم معناه، ولم يُرَاع فيه قائله الوزن العروضي .

وقد زاد اهتمام الأشرف وإقباله على مجالس الغناء والموسيقى بعد أن تخلى عن أملاكه في الشرق لأخيه الكامل محمد في سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، وقنع بدمشق فقلَّت

(١) بدائع البدائه ص٢٢١. وقد كان ابن ظافر كثير التردد على الأشرف، وممن يحضرون مجالس أنسه، وقد استوزره على حرَّان وأعمالها فترة، فلم تحمد سيرته فصرفه عنها، فعاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٦١٣ هـ . ياقوت : معجم الأدباء ٤ / ١٧٧٧، ١٧٧٨، ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٣/ ج ٤ / ٢٩٠، ٢٩١ .

(٢) بدائع البدائه ص ٢٢٢، ٢٢٣ .

مشاغله، ونزع إلى حياة الترف والدعة، وانشغل باللهو والملاذ [١]، ودعوة أرباب الغناء إلى حضور مجالس أنسه، ومن ذلك أنه لمَّا قدم سراج الدين الأرزنكاني[٢](ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) إلى دمشق استدعاه إلى مجلس أنسه، فحضر وهو بزي الصوفية يلبس قبعًا طويلاً فأكرمه، وقد كان سراج الدين بديع زمانه في الموسيقى وصناعة الألحان وأدائها، إلى جانب كونه مغنِّيًا بارعًا[٣]، فطلب منه الأشرف المشاركة في تناول الشراب فأبى، وجلس إلى جانب عازفي الآلات الموسيقية وغنَّى من ألحانه :

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ نَادِيكُمْ ومَنْ حَلَّ يَوْمًا بَوَادِيكُمْ

سَلَامُ مِنْ خَزَائِنِ لُطْفِ رَبِّي عَلَى مَنْ سَاكِنِي رُوحِي وَقَلْبِي

جُنِّنا بليلى وهي جُنَّتْ بِغَيْرِنَا وأخْرَى بِنَا مَجْنُونَةُ لا نُرِيدُهَا

فأعجب به الأشرف وخلع عليه، وأمره أن يخلع القبع ويلبس العمامة ففعل، وأقام بدمشق يتردد إليه أهل الطرب يتعلمون على يديه ويأخذون عنه[٤]، فكانت داره بدمشق بهذه المثابة أشبه بمدرسة لتعليم الموسيقى والغناء.

وقد كان شغف الأشرف موسى بالغناء، وولعه بسماع الجواري المغنِّيات سببًا في سخرية أخيه الكامل منه واتهامه له بأنه لا يصلح للملك، وإنما . على حد قوله . " يكفيه عن

(١) أبو الفدا : المختصر ٣ / ١٨١ .

(٢) أرزنكان، ويقال : أرزنجان، قال عنها ياقوت : " بلدة طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات غالب أهلها أرمن" وهي مدينة تركية تقع على الضفة الشمالية لنهر الفرات، غرب مدينة أرضروم . ياقوت : معجم البلدان١ /١٥٠، موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ص ٤١.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١/ ٤١١.

(٤) اليونيني : المصدر السابق نفس الجزء ص ٤١١، ٤١٢ .

الملك عشرته للمغاني، وتعلُّمُه لصناعتهم " [١] . ومما ينبغي الإشارة إليه إحقاقًا للحق أن الأشرف تاب قبل وفاته، فأقلع عن سماع الغناء، وأقبل على الابتهال والاستغفار والذكر، وأعتق مائتي مملوك و جارية [٢].

وأقبل الكامل محمد سلطان مصر (٦١٥ـ ٦٣٥هـ /١٢١٨ـ ١٢٣٨ م) ـ رغم سخريته وإنكاره على أخيه الأشرف . في بعض أوقات فراغه على سماع الموسيقى والغناء، وقد ذكر مؤرخوه عنه أنه أولع بمغنية تدعى (عجيبة) كانت تحضر إلي قصره ليلًا وجنكها محمول معها، ووراءها الجواري والخدم، وتغنِّي له على الجنك وبالدُّف في مجلس أنس يحضره فخر الدين بن شيخ الشيوخ [٣] وغيره ممن كان يضمهم مجلسه [٤].

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢ / ٣٤١، النويري : نهاية الأرب ٢٩ / ١٤١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ٥/ ١٤٤، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٤ / ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩ .

(٣) هو فخر الدين يوسف بن صدر الدين بن حمويه الجويني، ولد بدمشق بعد سنة٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، ثم رحل مع والده إلى مصر، واتصل بملوك بني أيوب وحظي عند الكامل محمد فجعله نديمًا له، واعتمد عليه في تصريف شئون دولته، وكذلك اعتمد عليه ابنه العادل الثاني، ثم قبض عليه واعتقله سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، وظل معتقلا حتى أخرجه الصالح نجم الدين أيوب، وأمره بلزوم بيته، ثم عهد إليه بالوزارة في سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م بعد وفاة أخيه معين الدين بن شيخ الشيوخ، ثم ولاه نيابة السلطنة بمصر، مات شهيدًا بدمياط سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م . سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٢٢ /٤١٠، ٤١١، الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٩/ ١٤٥ـ ١٤٨، ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٤١٣ .

(٤) العمري : مسالك الأبصار ١٠/ ٦٣٩، السبكي : طبقات الشافعية،تحقيق/ محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٧١م، ٨/ ٦٥، السيوطي : حسن المحاضرة ٢/ ١٦١.

وقد أسقط القاضي ابن عين الدولة [١] عدالته بسبب إقباله على سماع الغناء من عجيبة، ورد شهادته في إحدى القضايا التي عرضت عليه، وعندما سأل الكامل عن سبب عدم قبول شهادته أجابه القاضي : " كيف أقبلك وعجيبة تطلع إليك بجنكها كل ليلة وتنزل ثاني يومٍ بُكْرةً، وهي تتمايل سُكْرًا على أيدي الجواري" فأهانه الكامل من أجل موقفه هذا، فعزل القاضي نفسه عن القضاء، ولكن الكامل سرعان ما أرسل إليه من يسترضيه، وأعاده إلى منصبه، بناءً على نصيحةٍ قدَّمها له فخر الدين بن شيخ الشيوخ، بيَّن له فيها أن المصلحة إعادته لئلا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه ؟ وينتشر أمر (عجيبة) ويكون هذا سببًا وأداةً للتشنيع عليه بين الحكام والأمراء وعند الخليفة العباسي[٢].

وكان للملك الكامل مجلس خاص في ليلة الجمعة من كل أسبوع، يجتمع فيه مع الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم، وله في بقية الجمعة ليالٍ يختلي فيها مع ندمائه على الشراب وسماع الجواري المغنيات[٣]، ومما يروى عنه في هذا الصدد ما ذكرته المصادر من أنه في أحد هذا المجالس الخاصة حضرت مغنية تدعى (بنت نوري) مع المغنين فغنَّته بقولها:

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن صدقة، ولد بالإسكندرية سنة٥٥١هـ/ ١١٥٦م، ونشأ في الفسطاط، كان فاضلًا في الفقه الشافعي، تولَّى قضاء القاهرة والوجه البحري في عهد الكامل وابنه الصالح نجم الدين، وكان يحفظ شيئًا كثيرًا من الشعر والأدب، وله نوادر كثيرة، توفي سنة ٦٣٩هـ /١٢٤١م.ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بالفسطاط، تحقيق / زكي محمد حسن، جامعة فؤاد الأول ١٩٥٨م، ١/ ٢٥٦، ٢٥٧، ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ٢٩٨ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ٨ / ٦٥،٦٦، العمري : مسلك الأبصار ١٠ / ٦٣٩، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ / ١٦١.

(٣) النويري : نهاية الأرب ٢٩ / ١٤٨، ١٤٩ .

يا طَلْعَةَ القَمَرِ المُنِير من جَوْرِ حسنك مَنْ مُجيري ؟

فأعجب بذلك، وطلب منها الزيادة عليه، فتوجَّهت إلى الشاعر الدمشقي (الفاشوشة)[١] . وكان قد قدم إلى مصر في تجارة . فسألته أن ينظم لها أبياتًا على نفس الوزن لتغنِّي بها في مجلس الملك الكامل، فنظم لها هذه الأبيات :

قَسَمًا بدَيْجُور الشُّعور وبصُبح إسْفَارِ الثُّغور

وبأسْمَرٍ حُلْوِ المعا طِفِ واللُّمَى أمْسَى سميري

ما للصَّوارمِ والقَنا فِعْلُ اللواحظِ في الصُّدور

فحضرت عند الكامل فغنَّته بها، فطرب وأعجب بغنائها، وأنعم عليها بجميع آلات المجلس، ثم إن الفاشوشة مرض فنقلته إلى منزلها وقامت بخدمته إلى أن أبل من مرضه، وقالت له : " كل ما في البيت من إحسانك "، وقصت عليه ما جرى من إنعام الملك الكامل عليها [٢].

وقد كانت الانتصارات الحربية في عهد الكامل فرصةً مناسبة لإقامة الاحتفالات التي يكون من أبرز برامجها الاستماع إلى الغناء والموسيقى، كمظهر من مظاهر التسلية والترويح عن النفس بعد الانقباض، وطول الانتظار لتحقيق النصر، فعندما لحقت الهزيمة

---

(١) هو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز المعروف بالفاشوشة، وبابن شمعون الكتبي، شاعر وأديب دمشقي، ولد سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، كان من الفضلاء المطلعين على العلوم وأخبار العالم، وكان يتجر بالكتب في دمشق، توفي سنة ٧٠٠هـ /١٣٠٠م . الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ / ٢٢٣، المقريزي : المقفى الكبير ١/١٢٠، ١٢١، ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٧٩٦ .

(٢) الصقاعي : تالي وفيات الأعيان، تحقيق/ جاكلين سوبلة،المعهد الفرنسي بدمشق١٩٧٤م،ص٢٩، الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق /علي أبو زيد، دار الفكر، ط ١، دمشق ١٩٩٨م، ١ / ٦٦، ٦٧ .

بالصليبيين ورحلوا عن دمياط في سنة (٦١٨هـ /١٢٢١م) بلا قيد ولا شرط، بعد أن احتلوها وفتكوا بأهلها، أقام الكامل مأدبة كبيرة ومجلس شراب وأنس وطرب في قصره الذي بناه بالمنصورة ابتهاجًا بهذا النصر العظيم، حضره من الملوك الأيوبيين المعظم عيسى سلطان دمشق، والأشرف موسى سلطان حران وبلاد الجزيرة، كما حضره عدد كبير من الأدباء والعلماء وخواص الملك الكامل وحاشيته، وكان يومًا مشهودًا، استمتع فيه الجميع بسماع الجواري اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية، وتبارى الملوك الثلاثة فيمن تنشد من جواريهم أفضل، فأمر الملك الأشرف جاريته (ست الفخر بنت التاج) بالغناء، فنهضت من فورها وقبَّلت الأرض، وتناولت العود وأصلحته، ثم أنشأت تُغنِّي :

ولما طَغَى فِرْعَوْنُ عكا وقَوْمُهُ وجاءَ إلى مصرَ لِيُفْسدَ في الأرضِ

أتَى نَحْوَهُم مُوسَى وفي يَدِهِ العَصَا فأغْرَقُهم فِي اليَّمِ بَعْضًا على بَعْضِ

فَطَرِبَ الملك الأشرف بذلك وأعجبه، وقال لها: " بالله كرِّري "؛ فشقَّ ذلك على الملك الكامل وأمرها بالتوقف فسكتت، وأمر جاريته بالغناء، فنهضت وقبَّلت الأرض، وتناولت العود وأصلحته، وغنَّت :

أيَا أهْلَ دينِ الكُفْرِ قُومُوا وانظروا لِمَا قَدْ جَرَى في عَصْرِنَا وَتَجدَّدا

أعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وقَوْمَهَ ومُوسَى جَمِيعًا يَنْصُرَانِ مُحَمَّدا

فطرب الكامل بذلك وأعجبه، وأمر لكل واحدة من الجاريتين بخمسمائة دينار[(١)] . فكانت هذه الليلة بمدينة المنصورة من الليالي الملوكية النادرة " انطلقت فيها ألسن العيدان،

(١) ابن أيبك : كنز الدرر٧ /٢١٥، ٢١٦، المقريزي : الخطط ١ / ٦٤٣، ٦٤٤، السلوك ١/ ق ١/ ٢٠٩، ٢١٠.

وقام خطباء الأوتار،... ونفقت سوق الأنس، وقام منادي الطرب " [١]، أو كما وصفها المقريزي " من أحسن ليلة مرَّت لملك من الملوك " [٢]. وهكذا كانت هذه المجالس فرصةً مناسبةً للبهجة والسرور والترفيه عن النفس، بعد معاناة مشقات الحروب وويلاتها.

أما الملك العادل الثاني بن الكامل محمد فقد أقبل خلال فترة سلطنته (٦٣٥-٦٣٧هـ /١٢٣٧. ١٢٣٩م) على اللهو وشرب الخمر، وسماع الغناء، وأسرف في نفقاته على ملذاته وملاهيه وعطاياه، فكان يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمَّالين، فبدد أموال الدولة التي تركها والده، وجاوز إسرافه الحد فبلغت نفقاته وعطاياه في فترة حكمه القصيرة التي لم تزد على سنتين وشهرين طبقًا لما ورد في بعض المصادر ما يزيد على ستة ملايين دينار وعشرين مليون درهم[٣]، ورغم ما يكون في ذكر هذا المبلغ من مبالغةٍ واضحةٍ إلا أنه يدل على مقدار إسراف العادل الثاني وتبذيره .

أسرف العادل الثاني في ملذاته وفي تقريب أرباب الغناء والطرب حتى صاروا في عهده في أعلى المنازل[٤]، وكانت أيام سلطنته بمصر " كلها أفراح ومسرات، للين جانبه وكثرة إحسانه" [٥]، وأدى انهماكه في اللهو والملذات إلى انشغاله عن تدبير وإرساء قواعد دولته، والنظر في أمورها، فأطمع هذا ابن عمه الناصر داود حاكم الكرك (ت٦٥٦هـ /١٢٥٨م) وحدثته نفسه بملك مصر، فقدم وصحبته هاديا وتقادم من بينها عدد من

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ٧/ ٢١٥.

(٢) الخطط ١ /٦٤٤.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ٢٣،٢٦، المقريزي : السلوك ١/ ق٢ ص ٢٦٩، ٢٩٦.

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٣٩ .

(٥) المقريزي : السلوك ١/ ق ٢ / ٢٩٦.

الجواري اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية، وعدد من الجواري الراقصات، فأعجب العادل بهدايا الناصر داود وعوَّضه عشرة أمثالها(١).

أما الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر (٦٣٧- ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩- ١٢٤٩م) فقد كان . على الرغم مما اشتهر عنه من شدة وقاره وعفته، وعدم ميله إلى الهزل والعبث(٢)- يستمع في بعض أوقات فراغه إلى الغناء، ويعقد مجالس أنس وطرب وشراب، يجتمع فيها مع خواصه ومقربيه، ومما يذكر عنه أنه كان حريصًا في مجالس أنسه على ضبط النفس، حتى لا يفقد مهابته بين ندمائه، فكان إذا جلس في مجلس الغناء لا يحصل عنده من الخفة والطرب ما يحصل عند غيره من الملوك، بل يكون صامتًا لا يتزعزع ولا يتحرك، وعليه السكينة والوقار، وجلساؤه من وقاره يلتزمون هذه الحالة، ويكونون كأنما على رءوسهم الطير(٣)، ومن ثم تميَّزت مجالس أنسه عن غيرها من المجالس الأخرى بأنها كانت منزهةً عن مظاهر الخلاعة والمجون .

وقد انعكس شغف بعض سلاطين بني أيوب بسماع الغناء والموسيقى على المنتجات الفنية التي بقيت لنا من هذا العصر، حيث نقشت مناظر الطرب والغناء على العديد من التحف المعدنية الأيوبية، فعلى سبيل المثال صورت مناظر الطرب ورسوم الموسقيين والموسيقيات مع آلاتهم الموسيقية المختلفة، في أوضاع مختلفة على السطح الخارجي لطست الملك الصالح نجم الدين أيوب(٤)، كما صورت مناظر الغناء والطرب

(١) ابن دقماق : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص٩٩، المقريزي : السلوك ١ / ق ٢ /٢٧٥.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ٦/ ٨٢، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩١.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ٦ / ٨٢، ٨٣، الذهبي : المصدر السابق ١٩١/٢٣، ١٩٢.

(٤) محفوظ بمتحف الفرير جاليري بواشنطن . عبد العزيز صلاح سالم : الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، مركز الكتاب للنشر، ط١، القاهرة ١٩٩٩م، ١ / ٢٥١،٢٦٥، ٢٦٦ .

علـى فاظـة[١] باسـم الناصـر يوسـف بـن العزيـز محمـد سـلطان حلـب (٦٣٤ـ ٦٥٨هـ/١٢٣٦ـ١٢٦٠م) حيث نقش عليها صورة لأمير جالس في مجلس شراب، وبيده اليمنى سيف، وبيده اليسرى كأس، وعلى يمينه ويساره حارسان، ويتقدم هذا المنظر ثلاثة موسيقيين عازف الناي، وراقص الألعاب البهلوانية، وسيدة تضرب على الدف [٢] .

كما انتشرت مناظر الموسيقى والطرب بين رسوم الخزف الأيوبي، وتنوعت طرق تنفيذها، ومنها على سبيل المثال : رسم على طبق من الخزف يمثل سيدة جالسة متربعة تمسك بيدها آلة العود وقد ضمتها إلى صدرها، وأخذت تعزف عليها، ورسم آخر لسيدة جالسة متربعة، تضع على فخذها اليمين آلة الجنك، وتقوم بالعزف عليها [٣] .

ومما تجدر الإشارة إليه في ختام الحديث عن إقبال خلفاء صلاح الدين على سماع الغناء وحضور مجالسه أننا وجدنا من بين سلاطين بني أيوب من كان ينفر من الغناء ولا يحضر مجالسه، مثل الملك المجاهد[٤] صاحب حمص(٥٨١ ـ ٦٣٧هـ/ ١١٨٥ـ ١٢٣٩م)

(١) محفوظة بمتحف اللوفر بباريس رقم ٤٠٩٠ .

(٢) عبد العزيز صلاح سالم : الفنون الإسلامية ١ / ٢٦٩ .

(٣) عبد الخالق على عبد الخالق الشيخة : الخزف الإسلامي في العصر الأيوبي في مصر والشام في ضوء مجموعات جديدة دراسة أثرية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآثار، جامعة القاهرة ٢٠٠٦، مج ١/ ٥٧٤، ٥٧٥.

(٤) هو الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولد بمصر سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، ولاه صلاح الدين حمص بعد وفاة أبيه في سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، فملكها ستًا وخمسين سنةً، كان من أحسن الملوك سيرة، لا يشرب الخمر، ويلازم الصلوات في أوقاتها، طهَّر بلاده من الخمر والمكوس، توفي سنة ٦٣٧هـ .ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ٢٥٤ـ ٢٥٦، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٤ / ٢٣٩، ٢٤٠.

الذي وصفته المصادر المعاصرة بأنه كان ملازمًا للصلاة في أوقاتها، لا يميل إلى اللهو، وكانت أوقاته كلها مصروفة إلي النظر في مصالح بلاده [١] .

ومن هذا العرض يتضح لنا مدى إقبال بعض خلفاء صلاح الدين على التمتع بالحياة وملذاتها، واهتمامهم بسماع الغناء وحضور مجالسه، ومدى حرص الكثيرين منهم على امتلاك الجواري المغنِّيات.

خامسًا . اهتمام الأمراء والأعيان بالغناء ومجالسه:

لم يقتصر الاهتمام بالغناء على سلاطين بني أيوب، ولم تقتصر مجالسه على مجالس البلاط السلطاني، وإنما كان لبعض الأمراء والأعيان اهتمام أيضًا، وكانت لهم مجالس أنس وطرب لا تقل أبهةً وروعةً وبذخًا عن سابقتها، حيث أقبل كثير من رجال الدولة الأيوبية وأعيانها من الأمراء والكتَّاب والقضاة على سماع الغناء في مجالسهم ومآدبهم الخاصة، وفي هذا السياق ذكر العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ /١٢٠٠م) كاتب صلاح الدين ورفيق حله وترحاله، أنه حضر أثناء وجوده بمصر في سنة(٥٧٢هـ /١١٧٦م) بعض مجالس الأنس والطرب التي كان يعقدها الأعيان والأمراء، وشارك فيها، فكان يخرج في أوقات فراغه مع أعيان الدولة إلى أماكن اللهو والنزهة في جزيرة الروضة والجيزة ومنازل العز للتنزه وقضاء أوقات سعيدة، وكان يشاطرهم اللذات وحضور مجالس الأنس والغناء[٢].

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٥/ ٢٥٦، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٤ / ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) البنداري : سنا البرق الشامي ص ١١٥، ١١٧، أبو شامة : الروضتين ٢ / ٤٤٢، ٤٤٣ .

كما ذكر أنهم كانوا يجتمعون في دار القاضي ضياء الدين الشهرزوري[١] بالقاهرة، وأحيانًا في منزله بالفسطاط، فيتسامرون ويستمعون إلى الغناء والموسيقى، وأشار إلى هذا بقوله : " ... فهو تارة يضيفنا في داره بالقاهرة...وتارة يقرينا في منزله بمصر(الفسطاط) بألطافه الظاهرة، ونحن عنده في أرب وجد، وطرب ووجد، وسماع وغناء، واستمتاع واستغناء " وذكر العماد أنه نظم أثناء حضوره هذه المجالس مقطوعات من الشعر الغنائي اتسمت بالرقة والخفة، كانت تشدو بها أصوات مشاهير المغنين والمغنِّيات منها قوله :

إنْ لَمْ تَجُدْ بالوَصْلِ مُتُّ بِحَسْرَتِي إن الـفُــرَاقَ مَــنِيَّتِي يـا مُـنْيَتِـي

لكَ نَــاظِــرٌ ذُو صِـحَّـةٍ في عِلَّةٍ مَـا صِـحَّتِــي إلاَّ لـدَيهِ وعِـلَّتِـي

كَـمْ مِـنَّةٍ لَكَ فِـي الـوِصَالِ قَـوِيَّة وأراكَ فِي الـهُجْرَانِ تُضعف مُنْيَتِي[٢]

كما ذكر أنه أثناء وجوده بمصر كان يتردد على جماعة من الفضلاء ممن كانوا يقيمون له ولأمثاله الضيافة، فذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وهو صوفي ظريف لطيف، محب للأدب، كانت تربطه بنجم الدين أيوب صحبة قديمة، كما كان مقربًا من صلاح الدين وأبنائه مشمولًا بعنايتهم، فطابت له الحياة في مصر وبنى دارًا حسنةً على

(١) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله بن القاسم، ولد سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتفقه وسمع الحديث، ثم انتقل إلى مصر واتصل بصلاح الدين فقرَّبه وأكرمه، تولى قضاء دمشق سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م بعد وفاة عمه القاضي كمال الدين الشهرزوري لفترة، ثم انتقل إلى العراق فوَّلاه الخليفة الناصر لدين الله قضاء القضاة في بغداد والإشراف على مدارسها وأوقافها في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، ثم عاد إلى الشام وتولى قضاء حماة وتوفي بها سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م . العماد : خريدة القصر، قسم شعراء الشام ٢ / ٣٤٣، البنداري : سنا البرق الشامي ص ١٠٨، ١٠٩، أبو شامة : الروضتين ٢ / ٤٢٦، ٤٢٧ .

(٢) البنداري : سنا البرق الشامي ص ١١٧ .

شاطئ النيل تشتمل على بركة وبستان برسم ضيافة من نزل به، فكان يدعوهم إلى داره في ليالي الجمع، ويقيم لهم الضيافة منفردين ومجتمعين، ويحضر لهم المنشدين والمطربين(١).

كما كان العماد على ما ذكر الصفدي(٢) وابن حجة الحموي(٣)يعقد في داره بدمشق مجالس أنس وطرب، يجتمع فيها مع بعض الكتاب والأدباء، وقد انقطع فترة عن خدمة صلاح الدين فسأل عنه، وطلب من القاضي الفاضل أن يمضي إليه ويتفقد أحواله، فلما دخل الفاضل إلى دار العماد، وجد أشياء أنكرها في نفسه، مثل آثار مجالس أنس وطيب، ورائحة خمر، وآلات طرب فعاتبه بقوله :

ما ناصَحَتْكَ خبايا الود مِنْ رَجُلٍ ما لم يَنَلْكَ بمكروهٍ من العَذَلِ

مَحَبَّتي فيكَ تأبى عَنْ مُسَامَحَتِي بأنْ أرَاكَ عَلَى شَيءٍ مَنَ الزَلَلِ

فتأثر العماد بعتاب القاضي الفاضل، فتاب وأقلع، ولم يعد إلى شيء من ذلك البتة . ويبدو مما ذكره العماد عن نفسه أنه كان . على الرغم من كثرة مشاغله . يحب الحياة، ويميل إلى اللهو، وإلى أخذ قسطه من الحياة الرضية السهلة الهانئة في أماكن النزهة والبساتين، فكان أثناء وجوده بمصر يخرج إلى هذه الأماكن ويشاطر أمثاله من الأدباء والأعيان مجالس الأنس والطرب، أمَّا ما ورد في رواية الصفدي وابن حجة الحموي من شربه للخمر فأمر مستبعد؛ لأنه يتنافى مع ما اشتهر عنه من تدينه وتخلقه بأخلاق الإسلام، ونأيه بنفسه عما يشينها من الشبهات والآثام .

(١) البنداري : المصدر السابق ص ١٢١، أبو شامة : الروضتين ٢ / ٤٤٤.

(٢) الغيث المسجم في شرح لامية العجم،، المطبعة الأزهرية، ط ١ ، القاهرة ١٣٠٥هـ ، ١ / ٩٤ .

(٣) ثمرات الأوراق، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٥م، ص ١٨.

كما كان بعض الأمراء يقيمون مجالس الأنس والطرب في قصورهم الخاصة، ومن هذه المجالس ما ذكره ابن الشعار الموصلي عن عون الدين ابن العجمي[١] من أنه حضر في سنة (٦٤٠هـ /١٢٤٢م) مجلس غناء أقامه بعض أمراء حلب، حضره عدد كبير من أعيان حلب وسراتها، وصدح فيه المغنِّي بهذه المقطوعة الشعرية :

وحـقِّ الهَـوى إنّي لِغَيرِكَ لا أهْـوَى ولولاكَ ما أصْبَحْتُ وقفًا على البَلوَى

ولا قلتُ يـا بَرْقَ الحِمَى قِفْ برامةٍ سُحَيْرًا وحَـيِّ الـنَّازلينَ علـى حَـزْوَى

فاستطاب الحاضرون هذا الشعر والوزن، وطربوا له، وأخذ منهم كلّ مأخذ، وأعجبتهم معانيه، فارتجل ابن العجمي على البديهة مقطوعة من الشعر الغنائي قال فيها:

أقـــولُ لِعُـــذَّالـــي... ...[٢] وَلَومـيَ لا يُجْـدِي علـى الرَّشأ الأحـوى

ذَرُوا اللَّـومَ عـنِّي فالغَرَامُ سَجيَّتي ومَوْتِي على ذِكْر الهوى بُغْيَتي القُصْوى

وأيـنَ اسْـتِمـاعُ العَذْلِ من أُذْنِوَالهِ لـهَ نشْـوةٌ أغـرَتْـهُ بالـقامَـةِ الـنَّشـوى

وألقاها على المغنِّي، فغنَّى بها، فطرب الحاضرون بهذا اللحن، وتكررفي مسامعهم، وظلُّوا يرددونه ويطربون له إلى أن انقضى المجلس[٣] .

---

(١) هو سليمان بن عبد المجيد بن الحسن العجمي الحلبي، كاتب وشاعر، ولد في حلب سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ونشأ بها، حفظ القرآن وسمع الحديث، وبرع في الكتابة والأدب، تقدم عند الناصر يوسف سلطان حلب وحظي عنده، ولي نظر الأوقاف بحلب، ثم ولي ديوان الجيش بدمشق، توفي بدمشق سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٢ / ج ٣/ ٨٥ ـ ٩٠، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١ /٢٤٠ . ٢٤٣.

(٢) سقطت كلمة أو أكثر من الأصل المخطوط، ولم يستطع المحقق إكمال هذا النقص .

(٣) قلائد الجمان مج ٢ / ج٣ / ٩٠ .

وكان الأمير حسام الدين لاجين بن عبدالله الجوكندار[١] (ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م)[٢] يعقد في داره بدمشق مجالس السماع والغناء، ويُحْضِرُ فيها المغنين والمنشدين، ويقدِّم لروادها من الفقراء والصالحين من الأطعمة والمشارب ما لا يتخيله العقل، حتى بلغت نفقاته على مجلس السماع الواحد نحو ٨٠٠٠ ثمانية آلاف درهم[٣].

كما كان بعض الأمراء والأعيان يعقدون مجالس الأنس والطرب في المناسبات السعيدة ابتهاجًا وفرحًا، ومن هذه المناسبات إتمام بناء دار من الدور أو ختان ولد أو غير ذلك، ومن ذلك ما فعله الفلك المسيري[٤] وزير الملك الأشرف موسى عندما أكمل بناء داره التي بناها في دمشق، عقد مجلس غناء حافل ابتهاجًا بهذه المناسبة، حضره جماعة من

(١) الجوكندار: لفظ فارسي مركب من (جوكان) بمعنى العصا المعقوفة، و(دار) بمعنى حامل، والجوكندار : هو حامل جوكان السلطان التي يلعب بها كرة الصولجان . محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص ٥٨.

(٢) هو الأمير حسام الدين لاجين بن عبدالله الجوكندار، كان من أكبر أمراء دمشق وأعلاهم قدرًا، وأكثرهم تجملًا، كان فارسًا شجاعًا، له في الحروب مواقف محمودة، وكان محبًا للفقراء والصالحين، يحسن إليهم، ويتفقدهم بالنفقة والكسوة، ويعمل لهم السماعات التي يضرب بها المثل، توفي بدمشق سنة ٦٦٢هـ . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢ / ٣٠٠ . ٣٠٣، ابن العماد : شذرات الذهب ٧ / ٥٤٠ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٢/ ٣٠١ . ٣٠٣.

(٤) هو فلك الدين عبدالرحمن بن هبة الله بن علي، كان صدرًا كبيرًا وافر الحشمة، كثير التيه والصلف، وزر للملك العادل الأيوبي وابنه الأشرف موسى، غضب عليه الأشرف في سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م فنكبه وسجنه بقلعة دمشق واحتاط على أمواله، ثم أخرجه الكامل محمد، رحل إلى مصر وأقام بها، توفي سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م . المقريزي : السلوك ج١ / ق١ / ٢٥٧، المقفى الكبير ٤ / ٨٤ . ٨٧ .

الأدبـاء الـذين أفاضـوا فـي مدحـه، ووصـفوا الـدار بحسـن البنـاء، واسـتمتع الحاضـرون بالاستماع إلى الغناء [١] .

ولم يقتصر اهتمام الأمراء بالغناء على سماعه وحضور مجالسه، وإنما كان بعضهم يجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية، فكان شهاب الدين يوسف بن عز الدين مسعود بن الداية صاحب شيزر[٢] يجيد اللعب بالجغانة[٣]، ومما يذكر عنه في هذا الصدد أن العزيـز محمـد سـلطان حلـب (٦١٣ـ ٦٣٤هـ / ١٢١٦ـ ١٢٣٦م) [٤] خـرج فـي سـنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في رحلة صيد إلى حارم[٥] فلم يحتفل به شهاب الدين، وسيَّر له إقامة

---

(١) ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٦ / ج ٧ / ٨٠، المقريزي : المقفى الكبير ٤ / ٨٧ .

(٢) شيزر : بلدة ذات قلعة حصينة على الضفة اليسرى لنهر العاصي، في الجهة الشمالية الغربية من حماة على مسافة ٢٥كم . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨٣، مركز الدراسات العسكرية : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٤/ ٨٩، ٩٠.

(٣) الجَغَانَة : من آلات الموسيقى، وهي ضرب من الصولجان أو العصي يربط بها ثلاث صناج إذا حركت أنشأت نغمًا موسيقيًا. دوزي : تكملة المعاجم العربية، ترجمة/ محمد النعيمي، دار الرشيد، العراق١٩٨٠م،٢/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٤) هو غياث الدين محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، ولد سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، تولى حكم حلب بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م وهو طفل لم يتجاوز الرابعة من عمره، فتولَّى الوصاية عليه شهاب الدين طغريل، ثم استقل بالحكم في سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م، توفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وهو شاب . ابن واصل: مفرج الكروب، ٥/١١٦، ١١٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣ م، ٦ / ٢٩٧ .

(٥) حارم : بلدة صغير ذات قلعة وأشجار كثيرة ومياه، تقع في حوض العاصي الأدنى، في الشمال الغربي من مدينة إدلب على بعد ٥٥كم، كانت من أعمال حلب في السابق، وهي الآن مركز منطقة تتبع محافظة إدلب في سوريا. ياقوت : معجم البلدان ٢/ ٢٠٥، مركز الدراسات العسكرية: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مج ٣ /٧ .

اشتملت على قليل من الشعير، فغضب العزيز وقرر أخذ شيزر منه، فحاصرها وشدد الحصار عليها حتى أسقط في يد شهاب الدين، وأرسل إليه يعرض عليه تسليمها على أن يبقي عليه أمواله بها وأملاكه بحلب، فلم يجبه إلى ذلك إلا بشرط أن يدفع مائة ألف دينار، فوافق شهاب الدين ونزل إلى خدمته ونادمه، وكان يعاني اللعب بالجغانة، فأمره العزيز محمد أن يلعب بها بين يديه ففعل، فأعجب بذلك وعفى عنه، وأطلق له ما كان ألزمه بدفعه من الأموال، بل وأذن له في الذهاب بأمواله إلى حلب، وأبقى له أملاكه بها [١] .

كما حرص بعض الأمراء على تعليم مماليكهم الغناء، فكان لفلك الدين المسيري غلام جميل الصورة سمَّاه (أزبك) اهتم بتعليمه فن الغناء، وقد مدحه أحد الشعراء بقوله :

البدر بدا من صدغه في حلك والعقل غدا من حبه في شرك

تحت الفلك الخلق كثير لكن ما مثلك يا أزبك تحت الفلك[٢]

سادسًا . الأدباء ومجالس الغناء والموسيقى:

أقبل كثير من أدباء هذا العصر على سماع الغناء في مجالسهم ومآدبهم الخاصة، وقد عرفت مصر والشام مجموعة من الأدباء شغفوا بسماع الغناء وحضور مجالسه، وساعدهم على ذلك ما كان عليه أكثرهم من بسطة ويسار، بسبب كثرة الهبات والعطايا التي أفاضها عليهم سلاطين بني أيوب، ولا غرابة في إقبال الأدباء على سماع الغناء، فالشعر هو مادة الغناء، والشعراء من أقرب الناس إلى المغنين، فكل منهما يحتاج إلى الآخر، فكل مغن يرغب في الشعر، وكل شاعر طروب بطبعه، فكان الأديب المصري

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ٥/ ٦٤ . ٦٦ .

(٢) المقريزي : المقفى الكبير ٤/ ٨٦ .

راجي بن عطاء الله (ت٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥م) [١] شغوفًا بسماع الغناء وحضور مجالسه، بارعًا في نظم الشعر الغنائي وتلحينه، مكثرًا القول فيه، وقد وصفه ابن سعيد المغربي بأنه كان " من أولع خلق الله بحضور مجالس الغناء، والقول في منازع غرامياته"[٢]، وكانت دكانه بالفسطاط مجمعًا للأدباء، يأتون إليها من كل فج ويجتمعون فيها، ويبيتون معه، ويقضون ليلهم في السمر وسماع الغناء، فكانت دكانه بهذه المثابة أشبه بنادي ثقافي وملهى ليلي[٣]، وقد أورد له ابن سعيد مقطوعات من شعره الغنائي الذي كان يصدح به أهل الطرب في هذه المجالس منها قوله :

يا ثِقَاتِـي نَقَـلَ الأعْـ	**دَاءُ لـــي عَنْكُـمْ وعَنِّـي**
بحَيَـاةِ الحُـــــبِّ إلاَّ	**كُنْتُـمْ لِـي عِنْـدَ ظَنِّـي**
احذَرُوا أنْ تَتْرُكـونِـــي	**فـي الهَـوىَ أَقْـرَعُ سِنِّي**
عَذِّبُـوا بِكُـلِّ شَـــيءٍ	**غَيْـرَ إِظْهَـارِ التَّجَنِّـي**
فَمَتَـى شُنِّـعَ عَنْكُـمْ	**اشْتَفَـى الحُسَّـادُ مِنِّـي**
لَـمْ أُمَـنِّ النَّفْـسَ إلاَّ	**كُنْتُـم أَقْصَـى التَمنِّـي[٤]**

(١) هو فاضل بن راجي بن عطاء الله المصري، شاعر أديب، جلُّ شعره من الشعر الغنائي، وإلى جانب اشتغاله بالأدب كان عطارًا، وكانت دكانه بالفسطاط مجمعًا للأدباء والشعراء، اتصل بالعزيز عثمان سلطان مصر ومدحه، وصنَّف له كتاب(الشعراء العصرية بالديار المصرية) توفي سنة ٦٠٢هـ. ابن الشعار : قلائد الجمان مج٤ / ج ٥ / ٣٣٨، ابن سعيد : الغصون اليانعة ص ٦٦ . ٦٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٣٢٤ .

(٢) الغصون اليانعة ص ٦٦.

(٣) ابن سعيد : الغصون اليانعة ص ٦٦، النجوم الزاهرة ص ٣٢٤ .

(٤) الغصون اليانعة ص ٦٧، ٦٨، وقد أورد له نماذج أخرى أضربنا عن ذكرها خوف الإطالة .

أمَّا الأديب ابن سناء الملك[١](ت٦٠٨ هـ /١٢١١م) فقد أخذ من أسباب اللهو والطرب بأوفى نصيب، حيث كان كما وصفه مؤرخوه مقبلاً على الدنيا وملذاتها، عاكفًا على مجالس الأنس والشراب، يقتنص ساعات السرور ويحرص عليها " لا يطرح يوم السرور إلى غدٍ، ولا يقترح من الدنيا إلا العيش الرغد ... ومجلسه مجلس سرور لا يُكدَّر صفوه، ولا يُنغَّصُ بالجد لهوه " [٢]، وقد ساعده على ذلك أنه نشأ في أسرة عريقة نعمت بالغنى والثروة والجاه، وكانت موضع التقدير من ذوي المكانة والمنزلة، فعاش حياته في بحبوحة من العيش، وكانت داره بالقاهرة أشبه بمنتدى ثقافي وصالون أدبي جمع بين أسباب الترف واللهو، كان يلتقي فيها مع أصدقائه من الأدباء والشعراء في مجالس أنس وطرب تجري فيها بينهم المحاورات والمفاكهات التي يروق سماعها، فيتناقشون في مسائل أدبية حينًا، ويسمرون ويستمعون إلى الغناء حينًا آخر[٣]، وكان يدعو أصحابه إلى مجلس أنسه، ويتهددهم بالهجاء إن لم يجيبوا دعوته، كتب إلى أحد أصحابه يدعوه إلى حضور مجلسه، وتهدده بهجوه إن لم يحضر بقوله :

حضَرَ الحبيبُ وأنتَ أشْـ ـهَى للفـؤادِ مـنَ الحبيبِ

فَلَئِن حضـرتَ مُسـارعًا فَلأَصْفَحَـنَّ عـن الذُّنـوبِ

---

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن جعفر السعدي المصري، يلقب بالقاضي السعيد، شاعر وأديب مصري، ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م في أسرة عريقة نعمت بالغنى والثروة، تأدب على القاضي الفاضل، وبرع في فن الموشحات، وألف فيه كتابًا سمَّاه(دار الطراز) وله ديوان رسائل، عمل في ديوان الإنشاء بمصر مدة، ثم ولَّاه الكامل محمد ديوان الجيش، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسبًا له فاعتذر، توفي بمصر سنة ٦٠٨هـ . العماد : خريدة القصر(قسم شعراء مصر)١/ ٦٤ . ١٠٠، ياقوت : معجم الأدباء ٦ / ٢٧٦٤ . ٢٧٦٧.

(٢) العمري : مسالك الأبصار ١٨ / ٧٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦/ ٦٢ .

ولأَمْـدَحنَّـــكَ بالفتـــــوَّ ةِ في الحضورِ وفي المغيبِ
ولئـن قَعَـــدْتَ لأَهْجُـوَنَّـــ ـكَ فـي البَعِيدِ وفي القَرِيبِ[1]

وكان الأدباء يدعون بعضهم بعضًا إلى حضور مجالس الأنس والطرب؛ حيث يستمتعون بقضاء أوقات يطيب لهم فيها الجو لاحتساء الخمر وسماع الغناء، فكان الرشيد النابلسي (ت ٦١٩هـ /١٢٢٢م)[2] شغوفًا بعقد مجالس الغناء والشراب، مفتونًا بها[3]، يدعو إليها أصحابه ومقرَّبيه، ويحرص على حضورهم زيادة في الإمتاع والمؤانسة، كتب إلى أحد أصدقائه أبياتًا يتشوقه فيها، ويدعوه إلى حضور مجلس شرابه حيث اللهو والغناء، حاضًا إياه على انتهاز هذه الفرصة بقوله :

فَـدَيتُـك مَجْلِسِي عطـلٌ فَأَنْعِـمْ فإنْ أَنْعَمْتَ عـن عَجَلٍ تَحلَّـى
وَعِنْـدِي قَهْـوَةٌ [4]كالمِسْك رِيحـًا وحَاشـــا أَنْ يُنَاسِبُهَـــا وَكَـلَّا
وشـــادٍ شَـادِنٌ لَـــوْ أَنَّ غَيْـرِي تَمَثَّـــلَهُ لَصَـــامَ لَـــهُ وَصَلَّـى

(١) ديوان ابن سناء الملك، تحقيق/ محمد إبراهيم نصر، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٩م، ٢ / ٥٧٧، محمد إبراهيم نصر: ابن سناء الملك، أعلام العرب ٩٦، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧١م، ص ٧٥ . ٧٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسن النابلسي، الملقب بمدلويه، شاعر وأديب، ولد بدمشق في سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٩م، واشتغل بالأدب واللغة، ورحل إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق وعمل بها مؤدبًا للصبيان، وكانت له حلقة بالجامع الأموي يقرئ فيها النحو، اتصل بملوك بني أيوب في الشام ومدحهم، وحظي عندهم، توفي بدمشق سنة ٦١٩هـ .ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٢ /ج ٣ /٢٧١ . ٢٨٩، ابن شاكر : فوات الوفيات ٢/ ٢٧٥ . ٢٧٧.

(٣) ابن الشعار : المصدر السابق مج٢/ ج٣ / ٢٧٢ .

(٤) قهوة : من أسماء الخمر، سميت بذلك لأنها تمنع شاربها عن الطعام، يقال : أقهى الرجل إذا لم يشته الطعام . ابن منظور: لسان العرب (باب القاف) مادة (قها) ٤٢/ ٣٧٦٧ .

وقَـدْ ظَمِئتْ إلَـى لُقْيَـاكَ رُوحِـي فَأَدْرِكْهَـا تَجِـدْ بَـرْدًا وَظِـلَّا
وَعَجِّـلْ مُسْرِعًا مِـنْ غَيْـرِ بُطءٍ تَحُزْ شُكْـرِي الَّذِي تَهْـوَى وَإلاَّ[1]

وكان البهاء زهير(ت٦٥٦هـ /١٢٥٨م)[2] مقبلًا على الدنيا وملذاتها، يحب الغناء ويطرب لـه، ويرتـاد أمـاكن اللهو، ويعقد مجـالس الأنـس والطـرب والشـراب، ويـدعو إليهـا أصحابه من الأدباء، ويرغبهم في حضورها، كتب إلى بعض أصدقائه يدعوهم إلى حضور مجلسه، واصفا إياه بأنـه المجلس الـذي يستحق الزيـارة، لأنـه جمـع كل مـا تشتهيه النفس، ففيـه الشـراب، وفيـه سقاة صبـاح الوجوه مثل الشـموس والبـدور، ومغنٍ ليس لـه كفـء فـي ظرفه، ينشد الأشعار، ويشنف الآذان بسماعها :

يومُنَـا يـــوم مَطِيـــرُ ولَنَـــا كأْسٌ تَـــــدُورُ
ونـدامَـــى بهـمُ العَيْـــ ـــش كَمَـا قيـــل قَصِـيرُ
وسُقَـاةٍ مثـلَ مـا نَهْـــ ـــوَى شُمُـوسٌ وبُـــدُورُ
ومُغـــنٍّ هـــو فِيمَـــا يَحْسَـــبُ النَّـــاسُ أمِـيرُ
مـــا لَـــهُ فيمـا يُغَنِّيـــ ـيـــهِ مـــن الظُّـرْفِ نَظِـيرُ
وإذا غَنَّـــى تَمُـــوجُ الأَ رْضُ منـــــهُ وتَمُـــــورُ

(١) ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٢ / ج٣ / ٢٨٥ .

(٢) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي، شاعر مصري، امتاز شعره بالرقة والعذوبة، ولد في وادي نخلة بالقرب من مكة سنة٥٨١هـ/ ١١٨٥م، قدم مصر وعاش مع أسرته بمدينة قوص، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب فحظي عنده وولاه رئاسة ديوان الإنشاء، ثم عزله في أواخر أيامه، رحل إلى الشام بعد وفاة الصالح فلم تطب له الحياة بها، فعاد إلى مصر ولزم داره حتى توفي بها سنة ٦٥٦هـ . ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢ / ٣٣٢ ـ ٣٣٨، الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٤/ ١٥٩ . ١٦٣.

ويَغِيبُ القَــوْمُ في المَجْـ ـــلسِ والقَـــوْمُ حُضُـــورُ
مجلــسٌ إنْ زرتنـــا فيـ ـــهِ فَقَــدْ تَــمَّ السُّــرُورُ [١]

كمـا كـان الأدبـاء يجتمعـون فـي مجـالس الأنـس والطـرب للاسـتماع إلـى الغنـاء والموسيقى، فيعجب أحدهم بما يشدو به المغني من شعر، فيجيزه [٢] على البديهة شعرًا في نفس المعنى ببيت أو أكثر، وقد ذكر ابن ظافر الأزدي العديد من هذه المجالس الغنائية التي كان يحضرها الأدباء فيستمعون إلى الغناء ويطربون لسماعه، ويرتجلون مقطوعات من الشعر الغنائي يمتدحون فيها المغنين بالإجادة، أو ينتقدون أداءهم، مما لا يتسع المجال لذكره [٣].

ولم يقتصر اهتمام الأدباء بالغناء على مجرد سماعه وحضور مجالسه، وإنما جمع بعضهم بين قرض الشعر وإجادة فنون الغناء، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان أحمد بن عبد السيد المعروف بالصلاح الإربلي (ت٦٣١هـ/ ١٢٦٣م) شاعرًا متأدبًا مغنيًا، اجتمعت فيه أسباب المنادمة[٤]، اتصل في بداية أمره بالملك المغيث بن العادل، وكان يُغنِّي له، وتوثقت صلته به فصار حاجبًا له[٥]، وقدم معه إلى مصر، فلما توفي اتصل

(١) ديوان البهاء زهير، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ٥٣، دار المعارف، ط ٢، القاهرة ١٩٨٢م، ١٢٧، ١٢٨ .

(٢) الإجازة : هي أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله، وهي تارة تكون إجازة شاعر لمعاصره، أو إجازة شاعر معاصر لشاعر قديم، وتتم بعدة صور: إجازة نصف بيت بنصف بيت، وأجازة بيت من الشعر ببيت، وإجازة بيتين ببيت أو أكثر . ابن ظافر : بدائع البدائه ص ٤٢ .

(٣) انظر : بدائع البدائه ص ٦٩، ١٠٢، ١٠٣، ٢٧٥، ٢٧٧ .

(٤) ابن الشعار : قلائد الجمان مج ١/ ج ١ / ص ١٧٠ .

(٥) ابن العديم : بغية الطلب٢ / ٩٨٣.

بالملك الكامل محمد فنفق عليه وعظمت منزلته عنده، واختص به في خلواته، وارتفعت مكانته عنده فجعله من أمراء مصر، ثم تغيَّر عليه واعتقله[١] سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م في جب، فبقى معتقلاً خمس سنوات، فكتب دوبيت يستعطفه فيه ويطلب منه أن يعفو عنه:

افعَلْ ما شِئْتَ أنت أنت المحبوبُ ما لي ذَنْبٌ بَلى كما قلت ذُنُوبُ

هل تَسْمَح بالوصال في لَيْلَتِنَا تَجْلُو صَدأ القلبِ وتعفو وأتوبُ

وألقاه على بعض القيان، فغنَّت به عند الكامل فأعجبه واستحسنه، وسأل لمن هو، فقيل: للصلاح الإربلي، فرقَّ له وأمر بالإفراج عنه، وأعاده إلى ما كان عليه [٢]، وهكذا نجح الشعر الغنائي في الشفاعة لصحابه، وكان سببًا في الإفراج عنه .

وإذا كان الأدب . ولا يزال . صورة المجتمع في كل بيئة، ومرآة الحياة في كل عصر، فالشيء اللافت للنظر في أدب هذا العصر هو إكثار الأدباء من الحديث في شعرهم عن المغنين والمغنِّيات، وعن الطرب وآلاته؛ حيث أفاضوا في مدح المجيدين منهم، ومن ذلك ما جاء على لسان التاج البَلَطِي يمدح مغنيًا متميزًا، فيصفه بأنه بلغ الغاية في إتقان فن الغناء والتلحين بقوله :

مُطْرِبٌ لو صَغَى لَهُ ابنُ سُرَيْجٍ مَنَعَتْهُ أَلَحَانُهُ أَنْ يَفُوهَا

نَغَمَاتٌ أَحَّلَّ داوودُ أصْوا تَ مَزامِيرِهِ البَدِيعَةِ فيها

إِنْ تَغَنَّى أَقولُ واهًا وإيهٍ أو تَغَنَّى سِواهُ لي قُلتُ إيها [٣]

---

(١) كان سبب غضب الكامل عليه أنه بعثه رسولا إلى أخيه المعظم عيسى سلطان دمشق، فبلغه أن المعظم استماله إلى جانبه، فغضب عليه واعتقله. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٢/ ٣٣٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق نفسه، ابن العديم : بغية الطلب ٢/ ٩٨٣- ٩٨٦، ابن واصل: مفرج الكروب ٥ / ١٦٤ . ١٦٦، المقريزي : المقفى الكبير ١ / ٤٩٩ . ٥٠١ .

(٣) ابن العديم : تذكرة ابن العديم، تحقيق/ إبراهيم صالح، دار الكتب الوطنية، ط١، أبوظبي٢٠١٠م، ص٢٩٤، ٢٩٥.

ومن ذلك أيضًا ما جاء على لسان الشواء الحلبي (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م)[١] يمدح مغنيًا متميزًا في الغناء والعزف على آلة العود، ويصف مدى التلاؤم بين صوته واللحن المؤدى بقوله :

وَمُغَـنٍ أَجَـابَـهُ عُـودُهُ مِـنْ غَيْرِ نَقْـصٍ فِـيْ شَـدْوِهِ أَوْ زِيَـادَهْ

كَـالصَّـدى مَـا نَطَقْتَ بِاللَّفْظِ إلاَّ وَحَكَـاهُ بِعَيْنِـه فَـأَعَـادَهْ [٢]

ولم يقتصر الأدباء في حديثهم عن الغناء على مدح المجيدين من أهل الغناء، وإنما انتقدوا في شعرهم ما كان يتصف به بعض المغنين والمغنِّيات من قصور وقلة معرفة بصناعة الغناء والموسيقى، فوجهوا النقد اللاذع إلى غير المجيدين، وسخروا من المغنين الذين يزعجون الناس بأصواتهم المنكرة، وألحانهم القبيحة، ومن ذلك ما جاء على لسان الشواء الحلبي يهجو مغنيًا، ويصفه بأنه ثقيل الظل، قبيح الصوت، لا ينسجم صوته مع الإيقاع (اللحن)، ويتمنَّى موته، وأن تصاب عيناه وكفَّاه بالاضطراب كإيقاع لحنه وصوته المضطرب عند الغناء، بقوله :

تَمَنَّيتُ إذْ غَنَّى وصَفَّقَ لو قَضَى إلَهُ الوَرَى قَبْلَ السُّكُوتِ بمَوْتِهِ

فَيَا لَيْتَ عَيْنَيْهِ وكَفَّيهِ أصْبَحَتْ كإيقَاعِهِ عنـدَ الغِنَاءِ وصَوْتِـهِ[٣]

---

(١) هو يوسف بن إسماعيل بن علي بن أحمد المعروف بالشواء، شاعر وأديب، ولد في حلب سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م ونشأ بها، كان أديبًا فاضلًا متقنًا لعلم العروض، اتصل بملوك بني أيوب ومدحهم، له ديوان شعر كبير، توفي بحلب سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م . ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٨ / ج١٠/ ١٤٥ـ ٢٠٤، ابن العديم : بغية الطلب ١٠ / ٤٦١١، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ / ٢٣١ . ٢٣٦.

(٢) ابن الشعار : المصدر السابق مج ٨ / ج ١٠ / ١٧٢.

(٣) ابن الشعار : المصدر السابق مج ٨ / ج ١٠ / ١٦٨.

ونالت الجواري المغنِّيات اللاتي ولجن مجال الغناء من الأبواب الخلفية نصيبهن من نقد الشواء الحلبي، انظر إليه يذم مغنِّية عوَّادة غير متقنةٍ لصنعتها، فيصفها بأنها ضعيفة البدن، جاهلة في صنعتها، كبيرة السن قبيحة الوجه، لا تناسق بين صوتها وإيقاعها، مما يذهب لذة الاستماع، فهي إذا لمست أناملها أوتار العود بعثت الضجر في نفوس المستمعين، ثم شبه أوتار عودها عند الاهتزاز بحبال الصوف المشدودة على الحجر، وذلك بقوله :

تبًّا لِعَـــوَّادَةٍ قَصِيْـــرَةَ بَـــا ... عِ الفَهْـمِ جَهْـلاً طَوِيْلَـةِ العُمُـرِ

خَـارِجَـةِ الضَّـرْبِ والغِنَـاءِ مَعًـا ... تُرِيكَ وَجْهًـا مِـنْ أَقْبَـحِ الصُّـوَرِ

يُـذْهِـبُ مِضْـرابُهَـا وأَنْمُلُهَـا ... فِـي الجَـسِّ والضَّـرْبِ لـذَّةَ الوَتَـرِ

بِعُـودِهَـا إِذْ تَجُسُّـهُ لَكَـنٌ ... يُفْضِـي بَجُـلاسِهَـا إِلـى الضَّجَـرِ

كَـأَنَّ أَوْتَـارَهُ إِذَا قُـرِعَـتْ ... حِبَـالُ صُـوفٍ شُـدَّتْ عَلَـى حَجَـرِ (١)

والجدير بالذكر أن أدباء هذا العصر في حديثهم عن الجواري المغنِّيات ربطوا بين جمال الخلقة، وحسن الصوت، وعدوهما من المواصفات المطلوبة فيهن، ولم يكتفوا بحلاوة الصوت واتساقه فحسب، وإنما كان يفضَّل أن يصاحب هذا جمال وجه وقوام، ومن ثم تندَّر الشعراء ببعض المغنِّيات اللاتي كن يفتقرن إلى هذه المواصفات، فقد تندَّر القاضي الفاضل في شعره من قينةٍ كبيرة الأنف، قبيحة الصوت كانت إذا غنَّت تصمُّ المسامع، فقال معبرًا عما خالجه من شعور منفِّرٍ عندما رفعت صوتها بالغناء :

وقَـينَـةٍ كلُّ وجههـا أنـفُ ... كأنما وجْهُها لها خلْفُ

(١) ابن الشعار : المصدر السابق مج ٨ / ج ١٠ / ١٧٧.

غنَّتْ فلم تَبْقَ فـيَّ جارحـةٌ إلا تَمـنَّتْ أنَّـها كـفُّ[1]

كما تندَّر ابن الساعاتي من جاريةٍ سوداء مغنِّيةٍ تسمى (وردة) أهداها له أحد أصدقائه لتغنِّي له وتسليه وتروِّح عنه، فلما سمع غناءها كتب إليه يقول :

ولقد شَقِيتُ بوَصْلِ خَوْدكَ لَيْلةً طَالـتْ فكان ظَلامُها لا يَنْفَدُ

سَـوْدَاءُ حَالِكـةٌ تُلقَّـبُ وردةً وعَجِيبَـةُ الأَيـامِ وردٌ أسْـوَدُ [2]

ولن أطيل بذكر ما ورد في أدب هذا العصر من حديث عن المغنين والمغنِّيات فهو كثير، وأكتفي بما أوردته من نماذج، ولا ريب أن اهتمام الأدباء في شعرهم بالحديث عن الغناء والمغنين، والموسيقى وآلاتها المختلفة، يُعدُّ انعكاسًا صادقًا لاهتمامهم بسماع الغناء وحضور مجالسه نظرًا وسماعًا، وهو دال أوضح دلالة على كثرة انتشار تلك المجالس الغنائية في منتدياتهم، ومدى إقبالهم على حضورها، وهو دال أيضًا على أن إقبالهم على سماع الغناء لم يكن بهدف الترويح، وتزجية أوقات الفراغ فحسب، وإنما كان إقبال المتذوقين الدارسين، فهم كما كانوا يستحسنون كانوا يستهجنون، وكما كانوا يستجيدون كانوا يستقبحون، وأن اهتمامهم بالغناء لم يقتصر على مجرد سماعه وحضور مجالسه، وإنما جمع بعضهم بين قرض الشعر والغناء.

سابعًا . العامة ومجالس الغناء والموسيقى:

لم يقتصر الإقبال على سماع الغناء والموسيقى على السلاطين والأمراء والأدباء فقط، وإنما شاركهم العامة أيضا، فعلى الرغم من الظروف الصعبة والأحداث العظيمة التي

(١) ديوان القاضي الفاضل ٤٢٦/٢، مفلح ضبعان الحويطات : شعر الهجاء في مصر والشام زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤته ١٩٩٩م، ص ٩١.

(٢) ديوان ابن الساعاتي تحقيق / أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت ١٩٣٨م، ١ / ١٢٤.

مرَّ بها العامة خلال هذا العصر، إلا أن الحياة بجانبها المشرق اللاهي لم تتوقف، فقد استمر الناس في حياتهم بصورة طبيعية، وحيث كانت الحروب تدور في ساحاتها، كان العامة في الجانب الآخر يجدون للفرح متسعًا، فيحيون أيام أعيادهم ومناسباتهم بالاحتفالات الكبيرة، ولا غرابة في هذا فإن رخاء مصر وعظم ثروتها، أتاح لأبنائها أن يأخذوا لأنفسهم بحظ وافر من متع الحياة، كما أن أهل مصر اشتهروا منذ أقدم العصور بميلهم إلى اللهو والطرب، وحب المرح وخفة الظل، والابتهاج بالحياة [١].

ولعل مما شجعهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من حياة آمنة في ظل نظام سياسي متين، وقلة تكاليف الحياة في كثير من الأوقات، وتوافر أماكن اللهو والنزهة، وقد أشار الرحالة الذين زاروا مصر والشام في هذا العصر إلى ذلك، فقد أشار ابن جبير إلى أن العامة في مصر والشام كانوا يعيشون حياتهم بصفة طبيعية، وأن الأمن لا يفارقهم في جميع أحوالهم سلمًا أو حربًا، بينما أهل الحرب مشتغلون بحربهم[٢]، كما أشار عند حديثه عن مدينة الإسكندرية في عهد صلاح الدين إلى أنها كانت تعج بالحياة والحركة ليل نهار، فهي في نظره المدينة التي لا تعرف النوم، فتصرف الناس فيها بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم، وأن سكانها كانوا " في نهاية من الترفيه واتساع الأحوال، لا يلزمهم وظيف البتة " [٣] .

(١) أحمدأحمد بدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، ط١، القاهرة بدون تاريخ، ص٢٠،٢١، محمد سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص ١٥٦.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٥ ، ١٦.

وأشار الرحالة المغربي ابن سعيد [١] في حديثه عن القاهرة . وهو شاهد عيان . إلى ما كان يوجد بها في العصر الأيوبي من أنواع الملاهي والمغاني، والفُرَجِ في ظاهرها وداخلها، وما كان يتمتع به الفقراء من سكانها من حرية، وعدم الاعتراض عليهم فيما تذهب إليه نفوسهم من ضروب اللهو المختلفة، مما لا يوجد نظيره في غيرها من المدن الإسلامية بقوله : " والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته، ووجود السماع (أي الغناء) والفُرَجِ في ظواهرها ودواخلها، وقلة الاعتراض عليه فيما ذهب إليه، له نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقصٍ في وسط السوق، أو تجريد، أو سكر من حشيشة أو صحبة المردان وما أشبه ذلك، بخلاف غيرها من بلاد المغرب " [٢] . وأشار إلى إقبال سكانها رجالًا ونساءً على اللهو والمجون، ومجالس الطرب والشراب بصورة ملحوظة لم تكن تعرف في غيرها من المدن الإسلامية بقوله : " ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر، ولا آلات الطرب ذوات الأوتار، ولا تبرج النساء العواهر، ولا غير ذلك مما ينكر في غيرها"[٣]، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أن الوازع الديني عند بعض فئات المجتمع المصري في هذا العصر لم يكن قويًا.

أقبل بعض العامة في مصر في هذا العصر على سماع الغناء وحضور مجالسه التي كانت كثيرا ما تعقد في أماكن اللهو والنزهة المنتشرة في القاهرة والفسطاط وخاصة

---

(١) زار ابن سعيد مصر بصحبة والده سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأقام بها فترة طويلة، ثم غادرها متجها إلى مدينة حلب في سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، في صحبة كمال الدين بن العديم . ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق / محمد عبدالله عنان، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة١٩٧٧م، ٤/ ١٥٢. ١٥٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ص ٢٩، ٣٠، المقريزي : الخطط ٢/ ٦٨، المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق / إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٨٨م، ٢ / ٣٤٨ .

(٣) النجوم الزاهرة في حلى ص ٣١، ٣٢ .

على ضفتي خليج القاهرة، الذي كان من أشهر أماكن التنزه التي يخرج إليها أهل مصر للهو والتريض وقضاء أوقات الفراغ، وقد كان هذا الإقبال يزيد في وقت فيضان النيل، وعند الاحتفال بفتح الخليج بعد الوفاء، ويصف لنا المقريزي اجتماع العامة في خليج القاهرة للنزهة والترويح عن النفس بسماع الغناء، بقوله : " فيخرج الناس فيما بين المناظر[١] والخليج للنزهة، فيجتمع هناك من أرباب البطالة واللهو ما لا يحصى عددهم، ويمر لهم من اللذات والمسرات ما لا تسع الأوراق حكايته، خصوصا في أيام النيل " [٢].

وقد جرت العادة منذ العصر الفاطمي أن يركب الخليفة في موكب رسمي في اليوم الثالث أو الرابع من يوم تخليق المقياس[٣] لفتح سد خليج القاهرة، ويخرج الناس لمشاهدة هذا الموكب، واستمر هذا التقليد في العصر الأيوبي [٤]، فكان سلاطين بني أيوب يخرجون في مواكب حافلةٍ لفتحه، ويخرج عامة القاهرة والفسطاط للاحتفال بهذه المناسبة،

---

(١) المناظر: جمع منظرة، وهي قصور صغيرة الحجم بناها الفاطميون في القاهرة والفسطاط والروضة، والقرافة وغيرها، للنزهة وإقامة الاحتفالات في المناسبات العديدة، والإشراف على توديع الحملات الحربية . المقريزي الخطط ٢ / ٢٩٠.

(٢) الخطط ٢/ ٥٩، ٦٠ .

(٣) تخليق المقياس: التخليق هو التعطير بالرائحة المسماة (خلوق) ومعنى تخليق المقياس: تعطير عمود المقياس بالروضة ومسحه بالزعفران عند وفاء النيل، وارتفاع منسوب المياه إلى ستة عشر ذراعًا، وقد جرت العادة في مصر منذ القدم بالاحتفال بوفاء النيل، وظلت هذه العادة بعد الفتح الإسلامي، وفي العصر الأيوبي كان للمصريين في كل عام يوم يسمونه يوم التخليق. القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٤٧، ٤٨، وعن خروج سلاطين بني أيوب لتخليق المقياس انظر: المقريزي: السلوك ١/ ق١/٧٣، ١٣٦، ١٤٢.

(٤) عن خروج سلاطين بني أيوب لفتح سد خليج القاهرة ينظر : المقريزي : الخطط ٢ / ٣٤٣، ٦٩٩،٧٠٠، السلوك ١ / ق١ / ٧٣، ١١٩، ١٣٦، ١٤٢، المقفى الكبير ٤ / ٨٥ .

وكانت هذه الاحتفالات مجالا رحبًا للتنزه والفرجة، بما كان يقام فيها من زينة، وحفلات الغناء والموسيقى، وركوب قوارب النزهة في الخليج، وغيرها من ضروب الترويح التي كان العامة يجدون فيها الراحة والمتعة، ومتنفسًا من هموم الحياة ومصاعبها، ومما يسترعي الانتباه أنه في كثير من الأحيان كان يصاحب هذا الاحتفال بعض مظاهر التهتك والخلاعة، وشرب الخمر والمجاهرة بالمنكرات، ومن ذلك ما حدث في سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) حيث خرج أهل الخلاعة وذوو البطالة من الرجال وركبوا المراكب في مياه النيل ومعهم النساء سافرات الوجوه متزينات بأفخر زينة، وبأيدهن الطبول والمزاهر[١] يضربن بها، وتسمع أصواتهن، وأيدي الرجال تنال منهن ما تنال في الخلوات[٢] .

وقد حاول العزيز عثمان سلطان مصر (ت ٥٩٥هـ /١١٩٨م) من جانبه منع مظاهر الفساد التي كانت تجري في هذا الاحتفال، فصدرت الأوامر في سنة ٥٩٤هـ /١١٩٧م قبل الخروج لفتح سد الخليج بمنع ركوب المتفرجين في مراكب النزهة، ومنع ركوب النساء مع الرجال، واستخدمت السلطات العنف في تطبيق هذه القرارات، حيث تم تعليق جماعة من أصحاب المراكب من أيديهم .

بيد أن هذه الأوامر والإجراءات الصارمة لم تكن لتمنع الناس من أن يتخلوا عن التقاليد التي درجوا عليها وألفوها منذ قرنين من الزمان على أيام الفاطميين، ولم يكن من السهل القضاء عليها بين عشية وضحاها، فعندما جرى الاحتفال بفتح سد خليج القاهرة في العام ذاته . وكان في شهر رمضان . خرج أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب النزهة، ومعهم النساء سافرات الوجوه متزينات بأفخر زينة، وبأيديهن المزاهر يضربن بها، وتسمع

(١) المزاهر: جمع مِزْهَر، وهو الدف الصغير فيه جلاجل وهو المراد هنا، ويطلق أيضًا على آلة موسيقية تشبه العود . حسين على محفوظ : معجم الموسيقى العربية ص ٤٩.

(٢) المقريزي : الخطط ٢/ ٣٤٣ .

أصواتهن، في تحد صارخ لقرارات السلطات الحاكمة، ودون مراعاة منهم لحرمة شهر رمضان الكريم [١] .

وقد انتشرت الملاهي والحانات في المنطقة المطلة على الخليج حتى أصبحت تلك المنطقة بؤرة للفساد والرذيلة بما يرتكب فيها من مخالفات من جراء شرب المسكرات، والإفراط في حضور مجالس الغناء والطرب وغيرها من ضروب اللهو والمجون، وقد ذهب ابن سعيد إلى خليج القاهرة أثناء إقامته بمصر، وذكر اجتماع أهل اللهو والمجون من عامة القاهرة والفسطاط في المناظر المشرفة على ضفافه، والتي كانت أشبه بالملاهي الليلية في وقتنا الحاضر، ووصف ما كان يجري في اجتماعهم من الاستماع إلى الغناء وغيره من ضروب اللهو والمجون بقوله : " وقد دخلت الخليج الذي بين القاهرة ومصر ... فرأيت فيه من ذلك العجائب، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر... وهو ضيق عليه في الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهتك والمخالعة، حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب، وللسرج في جانبيه منظر فتَّان، وكثيرًا ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل " [٢].

وقد كانت منطقة القرافة [٣] من أشهر أماكن التنزه والفرجة، التي كان يرتادها العامة في مصر للتنزه والترويح عن النفس، وحضور مجالس الغناء، وقد لقيت اهتمامًا كبيرًا من جانب بعض الملوك الأيوبيين، فأسسوا بها المدارس والمساجد والقباب والربط، وقد وصفها

(١) المقريزي : الخطط ٢/ ص ٦٩٩، ٧٠٠.

(٢) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٣١، ٣٢، ٣٧٢، المقريزي : الخطط ٢/ ٧٠١ .

(٣) القرافة: يوجد في الفسطاط والقاهرة قرافتان : الكبرى منهما ظاهر الفسطاط، والصغرى ظاهر القاهرة، وتقعان في شرق الفسطاط على سفح جبل المقطم، وسميت القرافة بهذا الاسم نسبة إلى بني قرافة، وهم بطن من بطون قبيلة المعافر اليمنية . ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٣١٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٢١٨.

ابن جبير الذي زارها في هذا العصر بأنها " إحدى عجائب الدنيا " [١] وقد اعتاد العامة الخروج إليها في الليالي القمرية، وليالي المواسم والأعياد، وليالي الجمع من كل أسبوع، ومعهم الريحان والزهور والطبول، حيث يقيمون الولائم، ويكثر بينهم الغناء والرقص[٢]، وقد زارها ابن سعيد في هذا العصر، وحضر فيها العديد من مجالس الغناء التي كانت تغص بها، وأشار إلى هذا بقوله: " وبت ليالي كثيرة بقرافة الفسطاط ... ولا تكاد تخلو من طرب، ولاسيما في الليالي القمرية، وهي معظم مجتمعات أهل مصر، وأشهر متنزهاتهم" [٣].

ويتضح من حديث ابن سعيد عن القرافة أنها كانت تجمع بين غرضي التعبد والطرب والنزهة، فكانت مكانًا لاجتماع العلماء وطلاب العلم، والصوفية والمتبتلون وغيرهم، كما كانت مكانًا للتنزه والفرجة، يقصدها أهل الخلاعة والمجون لسماع الغناء والموسيقى، ومن ثم وصفها بقوله :

إنَّ القَرَافَةَ قَدْ حَوَتْ ضِدْيِنِ مِنْ دُنْيَا وأُخْرَى فَهْيَ نِعْمَ المَنْزِلُ
يَغْشَى الخَلِيعُ بِهَا السَّمَاعَ مُوَاصِلا وَيَطُوفُ حَوْلَ قُبُورِهَا المُتَبَتِّلُ
كَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا بِهَا ومُدَامُنَا لَحْنٌ يَكَادُ يَذُوبُ مِنْهُ الجَنْدَلُ[٤]

كما كان العامة يستمتعون بمجالس الغناء والطرب التي كانت تصاحب الاحتفال ببعض الأعياد التي كان يحتفل بها أهل الذمة في مصر، والتي كان من أهم مظاهر الاحتفال بها الخروج إلى المتنزهات بحثًا عن تسليةٍ عابرةٍ تنسيهم هموم الواقع وقساوة

(١) الرحلة ص ١٩ . ٢٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٣١٧، المقريزي : الخطط ٣ / ٦٤٦، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ١٦٩ .

(٣) المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بالفسطاط ص ١٠، المقريزي : الخطط ٣/ ٦٤٦.

(٤) المصدر السابق ص ١٠، ١١، المقريزي : الخطط ٣ / ٦٤٦، ٦٤٧ .

الحياة، وما يصاحب ذلك من أنواع الملاهي والغناء، ففي يوم الاحتفال بعيد الشهيد [١]كان يخرج عامة أهل الفسطاط والقاهرة على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم إلى المتنزهات على ضفتي نهر النيل، وينصبون الخيام، ويجتمع في هذا اليوم المغنون والمغنِّيات وأرباب الملاهي و" لا يبقى مغنٍ ولا مغنِّيةٍ، ولا صاحب لهوٍ، ولا رب ملعوب، ولا بغي ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع، ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد " حيث يقضون أوقاتًا سعيدة في التنزه، وحضور مجالس الغناء والطرب، وغيرها من ضروب الترويح التي كان العامة يجدون فيها الراحة والمتعة، وقد كان يحدث أثناء هذه الاحتفال الكثير من المعاصي من المجاهرة بشرب الخمور، وانتشار العديد من مظاهر الفسق والفجور، بل وكثيرًا ما كانت تقع بعض حوادث القتل بسبب شرب الخمر، وكثرة الناس واختلاطهم [٢] .

والشيء اللافت للنظر أن دور العوام لم يقتصر على مجرد سماع الغناء وحضور مجالسه، وإنما شارك بعضهم في الغناء والتلحين(الشعبي)، فكان للباعة الجائلين في مصر أغانيهم الخاصة التي يروجون به لسلعهم التي يبيعونها، وخاصة تجار الفاكهة، وقد أشار إلى هذا ابن سعيد المغربي بقوله : " وسمعت الذين يطوفون بالجميز على هذا الخليج (يقصد خليج القاهرة) يغنون :

السُّودُ مِسْك وعَنْبرْ والسُّمْرُ قضبان الذَّهبْ

---

(١) عيد الشهيد : من الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون في مصر، وكان يتم الاحتفال به في اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط، ويرتبط الاحتفال به بنهر النيل، حيث يعتقد النصارى أن النيل لا يزيد في كل عام إلا إذا ألقوا فيه تابوتًا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، وكان يشارك في الاحتفال به أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، بغض النظر عن ديانتهم . المقريزي : الخطط ١ / ١٩٩، ٢٠٠ .

(٢) المقريزي : الخطط ١ / ١٩٩ .

والبيض ثَـوْبا دِبيقِـــي مـــا يَحْتَمِـل تَـمْعِيـــكْ" (١)

وإذا ولينا وجوهنا نحو بلاد الشام نجد أن أهل دمشق كانوا يميلون إلى اللهو واللعب(٢)، وقد جرت عادتهم على اتخاذ يوم السبت من كل أسبوع عطلة رسمية لا يعملون فيه عملا، وإنما يتخذونه يوم لهو ومرح(٣) يتحللون فيه من القيود، فلا يبق للسيد على مملوكه سيطرة، ولا للوالد على ولده، ولا للزوج على زوجته، ولا للأستاذ على تلميذه، فإذا كان أول النهار يطلب كل واحد منهم نفقة يومه، ثم يخرجون إلى أماكن النزهة وشطوط الأنهار، ودوحات الأشجار بين البساتين والأنهار الجارية، ويقضون يومهم في لهو ولعب، وسماع الغناء، وكل ما يتلذذ به السمع، ويسر العين وتشتهيه النفس(٤)، ومن الأماكن التي كانوا يخرجون إليها في هذا اليوم الميدان الأخضر(٥) حيث يقضون فيه يومهم في اللهو والمرح " فقوم يلعبون بالصوالجة (٦)، وآخرون يغنون السماع، وكل أحد فيما مال إليه هواه

---

(١) النجوم الزاهرة في حلى حضر القاهرة ص ٣٧٢، المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق / سيد حنفي حسنين، الذخائر ١٢٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دارصادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٩١ .

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٤٩ .

(٤) القزويني : المصدر السابق نفسه .

(٥) الميدان الأخضر: هو أحد ميادين دمشق، يقع في الجهة الغربية منها، على مرج فسيح يشرف على نهر بردى، يحيط به سياج من أشجار الجوز. سوفاجيه: دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م، ص ٣٥.

(٦) الصوالجة : مفردها صولجان، وهي اسم فارسي مُعرَّب من الفعل الثلاثي صَلَجَ، وجمعه صَوَالِجَة، والصَّوْلَجُ والصَّوْلَجانُ العود المعوج، وهي عصا معقوفة في جزئها العلوي يضرب بها الكرة من على ظهر الدواب .ابن منظور: لسان العرب(باب الصاد) مادة (صَلَجَ) ٢٨ / ٢٤٧٩.

لا مثرب ولا منتقد " [١]، ومن بين الأماكن التي كان يقصدها أهل دمشق في هذا اليوم أيضا قرية المزة [٢] التي اشتهرت بأنها كانت مكانًا يرتاده أرباب البطالة للهو والطرب[٣].

ومن أماكن اللهو والغناء التي كان يرتادها عامة دمشق في هذا العصر خان بحي العقيبة خارج دمشق يعرف بـ (خان الزنجاري)، كان يجمع أسباب اللهو والملاذ، ويجري فيه من الفسق والفجور ما لا يحد ولا يوصف[٤]، فاشتراه الملك الأشرف موسى وهدمه وبنى مكانه جامعًا في سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م سمي بـ (جامع التوبة) وقد جرت في خطابته نكتة طريفة، وهي أن خطيب هذا الجامع وهو الجمال البستي، كان في صباه يلعب بـ (الجغانة)، ولما كبر حسنت طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح، فولاه الأشرف خطابة الجامع، فلما توفي تولَّى بعده العماد الواسطي الواعظ، وكان يتهم بشرب الخمر، فنظم أحد الشعراء أبياتًا على لسان الجامع يشكو فيها حاله إلى الملك الصالح إسماعيل بن العادل، ومما جاء فيها :

يَا مَلِيكاً مَلأَ الرَحـــ	**ـمنُ بالعَدْلِ زَمَانَهْ**
جَامِعُ التَّوْبَةِ قَدْ	**حمَّلني مِنْهُ أَمَانَهْ**
قَالَ قُلْ للملكِ الصَّا	**لِحِ أَعْلى اللهُ شَانَهْ**
لي إمامٌ وَاسِطيٌّ	**يَعْشَقُ الخمَرَ دِيَانَهْ**

(١) ابن سعيد : الغصون اليانعة ص ١٤٣ .

(٢) المزة : قرية كبيرة غناء في الجهة الغربية من مدينة دمشق، تحيط بها المياه والأشجار من جميع جهاتها. القزويني : آثار البلادص ٢٦٣، مركز الدراسات العسكرية : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري مج ٥/ ٢٣١.

(٣) القزويني : المصدر السابق نفسه .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣٣٤، ابن واصل : التاريخ الصالحي، تحقيق / عمر عبد السلام تدمري،المكتبة العصرية، ط ١، بيروت٢٠١٠م، ٢/ ٣٠٧ .

والـَّـذِي قَـدْ كَانَ مِـنْ قَبْـلُ يُغَنِّـي بِالجَغَانَـهْ
فَكَمَـا كُنْتُ وَمَـا زِلـ ـتُ وَلَا أَبْـــرَحُ حَانَـــهْ
رُدَّنـــي للنَّمـــطِ الأَوَّ لِ واسْتَبِـــق ضَمَـانَـــهْ (١)

كما كان عامة دمشق يستمتعون بحضور مجالس الغناء التي تقام احتفالا بشفاء بعض السلاطين من المرض، فقد جرت العادة أن يحتفل بشفاء السلطان إذا ألم به مرض ثم شفي منه، فتعلق الزينات، وتقام حفلات الغناء لعدة أيام ويحضرها العامة، ومن ذلك ما حدث في سنة ٦٢٣هـ /١٢٢٦م عندما شفي المعظم عيسى سلطان دمشق من مرض أصيب به، فرح أهل دمشق بشفائه، وزيَّنوا المدينة بهذه المناسبة أحسن زينة، وأقيمت الاحتفالات بالمغاني وغيرهن عشرة أيام بلياليها(٢) .

والطريف أن عامة الشام اتخذوا من الغناء في بعض الأحيان وسيلة عبَّروا بها عن سخريتهم وسخطهم من تصرفات بعض الحكام والأمراء، ومن ذلك ما فعله عوام دمشق عندما أمر الملك العادل الأيوبي في سنة٦١٠هـ/١٢١٣م بوضع سلاسل على أبواب الطرق المؤدية إلى الجامع الأموي، ومدها في أيام الجمع، لئلا تصل الخيول إلى أبواب الجامع، صيانةً للمصلين عن التأذي بها، فحصل للناس رفق بذلك، ثم ترك هذا الأمر

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (القسم الخاص بدمشق) تحقيق / سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، دمشق ١٩٥٦، ص ٨٧، ٨٨، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣٣٤، ٣٣٥، النعيمي: الدارس٢ / ٤٢٦،٤٢٧. وقد وردت هذه الأبيات في هذه المصادر مع اختلاف في بعض الألفاظ، ونسبها ابن شداد والنعيمي إلى ابن عنين(ت٦٣٠هـ /١٢٣٢م) وقد طبع ديوانه بتحقيق / خليل بك مردم، ولا توجد به هذه الأبيات، أما ابن خلكان فقد نسبها إلى الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زويتينة الرحبي، وذكر أنه حضر إلى مصر في بعض شهور سنة ٦٤٧هـ في رسالة من صاحب حمص، فأنشده هذه الأبيات .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١١٩، ١٢٠.

وعاد إلى ما كان عليه، فعمل بعض العوام أبيات هزلية ساخرة يتهكم من هذا الأمر، كان يَتَغَّنى بها عامة دمشق في الميادين والأسواق منها :

إنَّ ذَا عَـامٌ جَدِيـــدٌ	**إنَّ ذَا يَـوْمٌ سَعِيـدٌ**
والمدينـــةُ هَارِبَـــةٌ	**قَـيَّدُوهـا بالحديـد**
كلُّ جمعـةٍ يسجنـوها	**كأَنَّهم مَـا يعرفُـوهَا**
والنَّبِي لَـوْ أطلقـوهـا	**ما تَـرح إلى البَرِيـد[١]**

ومـا فعلـه عـوام حلـب مـع عمـاد الـدين زنكـي[٢]عنـدما سلَّم مدينـة حلـب فـي سـنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م لصـلاح الـدين فـي مقابـل أن يعطيـه مدينـة سـنجار[٣]، تنـدَّر بـه العامـة، وشاعت بينهم أغاني شعبية تسخر من تصرفه وتصفه بالحمق والغباء، فكانوا إذا رأوه غنَّوا وقالوا : يـا حمـار، يـا مـن بـاع حلـب بسـنجار، وعمـل عـوام حلـب فيـه شـعرًا ملحونًـا، كـانوا يتغنون به، ويدقون على طبل :

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٨٢ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ٢ / ٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) هو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صَاحب سنجار،ملك حلب بعد ابْن عَمه الْملك الصَّالح إِسْمَاعِيل بن نور الدّين مَحْمُود بن زنكي، ثم سلَّمها لصلاح الدين في ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م في مقابل أن يعطيه عوضًا عنها سنجار ونصيبين والخابور، كَانَ عادلاً فِي الرّعية عفيفًا عَن أموالهم، توفّي بسنجار سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م . ابن الأثير : الكامل ١٠ / ٢٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب ٣ / ٧٨، الصفدي : الوافي ١٤ / ١٥٠، ١٥١.

(٣) سِنْجَار: مدينة مشهورة من مدن الجزيرة، تقع في الغرب من مدينة الموصل على مسافة ٨٠ كم، وهي الآن مركز قضاء سنجار في محافظة نينوى . ياقوت : معجم البلدان ٣ / ٢٦٢، حسن شميساني : مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار الآفاق الجديدة، ط ١، بيروت ١٩٨٣م، ص ٣١ حاشية (٦) .

أحبـاب قلبـي لا تلـومونـي هـذا عماد الديـن مجنـون

قايضَ بسنْجَار القلعة حلب وزاده المولـى نـصيبيـن [1]

ثامنًا ـ مشاهير أرباب الغناء والموسيقى :

ليس شك في أن مصر والشام في العصر الأيوبي قد عرفتا الكثير ممن تميزوا ونبغوا في فنون الغناء والموسيقى سواء من الجواري المغنِّيات أو المغنين من الرجال، ولكن تواجه الباحث عند الترجمة لهم بعض المصاعب بسبب عدم اهتمام المصادر المعاصرة بالترجمة لهم، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة العصر وسيطرة الأخبار الحربية والعسكرية على اهتمام المؤرخين المعاصرين، وغلبة الروح الدينية على كثيرٍ منهم، فكانوا يترفعون عن ذلك مراعاة لآداب المجتمع وتقاليده، وجريًا على عادتهم بعدم إفراد تراجم لهذه الفئة من المجتمع، وكل من يرونه متحررًا من عادات المجتمع وقيمه وتقاليده .

ورغم اعتقادنا بأن عدم اهتمام المصادر المعاصرة بالترجمة لأهل الغناء والموسيقى لا يعني أن هذه الفئة من المجتمع لم تكن موجودة، إلا أن هذا التجاهل ساهم بشكل أو آخر في تهميش هذه الفئة من المجتمع ودورها، فأصبحنا لا نرى أخبارها في المصادر المعاصرة إلا نادرًا في ثنايا الحديث عن ملوك وسلاطين هذا العصر وما أقاموه من احتفالات، وهي إشارات مقتضبة اقتصرت في كثير من الأحيان على ذكر أسماء بعضهم دون الخوض في تفاصيل حياتهم، ومع هذا فقد استطعنا من خلال هذه الإشارات المقتضبة، وما جاء في دواوين بعض الأدباء المعاصرين الوقوف على أسماء العديد من الجواري المغنِّيات اللاتي كن يُجِدْنَ الغناء ويحترفنه، ويُجِدْنَ العزف على الآلات الموسيقية المختلفة، وحظين بمكانةٍ عاليةٍ عند بعض سلاطين بني أيوب ومن أشهرهن :

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ٨ /٣٨٦٠، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص١٩٣، ابن واصل : مفرج الكروب ٢ / ١٤٣.

حسناء المصرية : وهي مغنية ولدت باليمن، وتربَّت بالحجاز، وتعلمت الغناء ببغداد، واشتهرت بمصر، وكانت من الشاعرات اللائي جمعن بين الشعر والغناء، فكانت تنظم الأبيات والمقطوعات الشعرية وتغنيها في مجالس السمر واللهو، قال عنها العماد الأصفهاني: " مغنِّيةٌ عن الملاهي مغنيةٌ، وغانيةٌ بالحسن غنيةٌ " (١) ومن شعرها الذي تغنَّت به قولها :

سَلامٌ على من ليس يَدْري بأنَّهُ هواي من الدنيا وقاصيةُ المُنَى

كتبتُ إليكم خَاطِبًا لرضَاكُمُ فردُّوا جَوَابًا بالنَّجاحِ مُعَنْوَنَا (٢)

ومنهن (سرور) جارية السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين، وقد كانت في بداية أمرها ملكًا لامرأة بالقاهرة، اعتنت بها وعلَّمتها الخط، وحفَّظتها القرآن الكريم، وعلَّمتها النحو واللغة والأدب، وروَّتها الأشعار، وعلَّمتها صنعة الغناء، حتى فاقت كل جاريةٍ في الغناء، فرآها العزيز أيام أن كان نائبًا عن أبيه في مصر فأعجب بها، ولم يقدر على ملك رقها خوفًا من أبيه، فلما توفي صلاح الدين وتولى سلطنة مصر اشتراها وجعلها من جواريه(٣) .

ومنهن (فنون) جارية الملك العادل الأيوبي، وقد أهداها له أحد ملوك الروم، واشتهرت بتميزها في الغناء، وإلى جانب هذا كانت تجيد العزف على الآلات الموسيقية، وقد أعجب العادل بغنائها ذات مرة، فأمر بتلبية طلبها في فك أسير كان قد وقع في يد الفرنجة، فافتداه بالأموال (٤) .

---

(١) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٢ / ٢٢١ .

(٢) العماد : خريدة القصر، قسم شعراء مصر ٢ / ٢٢١.

(٣) العمري : مسالك الأبصار ١٠ / ٦٣٥، ٦٣٦.

(٤) العمري : المصدر السابق نفس الجزء ص ٦٣٦. ٦٣٨ .

ومنهن (عجيبة) مغنية السلطان الكامل محمد المفضلة، وقد كان شغوفًا بها، لا يصبر عنها ليلة من الليالي، فكانت تحضر إلى قصره ليلًا وجنكها محمول معها، ووراءها الجواري والخدم، وكانت تحضر مجلسه سرًا وعلانيةً، وتُغنِّيه على الجنك وبالدف، وقد مرَّ معنا أن القاضي ابن عين الدولة قد رد شهادته في إحدى القضايا بسبب إقباله على سماع غنائها [١].

ومن الجواري اللاتي كن يُجِدْنَ فنون الغناء والطرب ويحترفنه، جارية تعرف بـ (بنت نوري)، كانت تحضر في مجالس أنس السلطان الكامل محمد وتُغنِّيه، وقد أعجب في أحد مجالس أنسه بغنائها، فأنعم عليها بجميع آلات المجلس[٢].

ومـن الجـواري المغنِّيات اللاتـي ذاعت شـهرتهن فـي هـذا العصـر جاريـة جنكيـة[٣] تسمى (سنبلة) كانت متميزةً في الغناء والعزف على آلة الجنك، وقد اشتهر أمرها وذاع صيتها بين أهل دمشق، حتى نالت اهتمام بعض الأدباء والكتَّاب، فقال فيها فتيان الشاغوري[٤]وقد سأله أحد أصحابه المقربين أن ينظم له فيها أبياتًا :

لي عاذِلٌ في الحُبِّ ما أعْذَلَهْ وعَنْ طَرِيقِ العَدْلِ ما أَعْدَلَهْ

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية ٨ / ٦٥، ٦٦، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ / ١٦١ .

(٢) الصفاعي: تالي وفيات الأعيان ص ٢٩، الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر ١/ ٦٦، ٦٧.

(٣) الجنكية : أي التي تجيد العزف على الجنك، وقد سبق التعريف بهذه الآلة .

(٤) هو أبو محمد فتيان بن على بن فتيان بن ثمال الأسدي، شاعر وأديب، ولد ببانياس بعد سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، وانتقل إلى دمشق ونشأ بها، واتصل بملوكها ومدحهم وعلَّم أولادهم، واتخذ مكتبًا بالزبداني لتعليم الصبيان، وكان له حلقة بجامع دمشق يقرئ فيها النحو والأدب، له ديوان شعر كبير، وديوان صغير كله دوبيت، توفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م . العماد: خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٧ . ٢٥٩، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ /٢٤ . ٢٦.

يَطْمَــعُ جَهْلا أنْ يُـرى طَارِدًا عُطَارِدًا عن طَالِـعِ السُّنْبُلَـةْ

جَارِيــةٌ جائِـرَة فـي الهَـوَى وجَنْكُها المُطْـرِبُ ما أعدَلَـهْ

كأنَّهــا فــي جــسِّ أَوتــارِهِ بقُراطُ يبغي نبضَ مـن علّلَهْ (١)

ولـم يقتصـر الاهتمـام بالغنـاء والموسـيقى علـى الجـواري، وإنمـا نبـغ فـي الغنـاء والموسيقى عدد كبير من الرجال، اتخذ بعضهم من إتقان فنون الغناء والموسيقى مهنة للارتزاق، ومن هؤلاء مغنٍ يعرف بـ (**البديع**) كان أعجوبة زمانه في الغناء والتلحين، له صوت عذب، ولحن تهتز لوقعه الجبال، ومما يؤسف له أن المصادر التاريخية وكتب التراجم لم تذكر لنا شيئًا عنه، وقد عرفنا اسمه من خلال أبيات قالها فيه الشاعر ابن الساعاتي، وقد طلب منه البديع شيئًا من شعره، فكتب له جزءًا وكتب في ظهره مادحًا إياه بالبراعة في الغناء والألحان :

ما دعوكَ البديعَ حتى تفرَّدتَ وأصبحتَ فـي الغناءِ بَدِيعا

فإذا مـا دعوت لهوًا بألحَانِك وافــاكَ سَــامعًـا ومُـطِيعـا

وإذا الـدَّهرُ ضَنَّ باللذة البِكْرِ جَـعَلنَّــاكَ خَـاطِبًا وشَـفيعا(٢)

ومغن مصري آخر اسمه (**محمد**) كان بارعًا في الغناء والعزف على آلة العود، وقد عرفنا أخباره من خلال أبيات نظمها الأديب المصري ابن العصَّار(٣) مدحه فيها بأنه

---

(١) ديوان فتيان، تحقيق / أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٧٦م، ص ٣٨٨، ٣٨٩ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢ / ٣٤ .

(٣) هو أبو البركات هبة الله بن محمد بن شكر المعروف بـ (ابن العصَّار) أديب وشاعر مبدع من أهل الفسطاط، كان من شعراء السلطان الكامل محمد، واتصل بالناصر داود بن المعظم عيسى حاكم الكرك، كان كثير العجب بنفسه، يرى أنه متنبي زمانه، توفي بعد٦٣٠هـ /١٢٣٢ م .

←←←

قد بلغ الغاية في فنون الغناء والتلحين، فهو آية في فنه إن غنَّى أو عزف، فغناؤه يميت الهموم، ويحيي النفوس، ويجلب السرور، وينفي الكرب :

تَنَبَّــأ محمَّـــدُ فـــي فَنِّـــهِ وآيَتُــهُ إن شَـدَا أو ضَـرَبْ
يُمِيْتُ الهُمُومَ ويُحْيِي النُّفُوسَ وَيُبْقِى السُّرُورَ وَيَنْفِي الكُرَبْ
تَقُـــــولُ أعَـاجِـــمُ أوْتَـارِه أقَاوِيلَ تُخْـرِسُ فُصْـحَ العَرَبْ
فَتَحْـرِيْكُهَـا سَكَنَاتُ الأسَـى وتَسْكِينُهَا حَـرَكَاتُ الطَّــرَبْ[1]

وإلى جانب هؤلاء الذين احترفوا الغناء والموسيقى وجد عدد لا بأس به من العلماء الذين تميَّزوا في فنون الموسيقى والغناء، غير أنهم لم يعتمدوا عليهما كمصدر للارتزاق، وإنما كان اهتمامهم بها حبًا لها، ومن أجل التسلية في أوقات الراحة والفراغ؛ حيث أقبل بعض الأطباء على دراسة الموسيقى، وأتقنوا فنونها، ولم يتوقف اهتمامهم بها عند هذا الحد، وإنما أجاد بعضهم الغناء والعزف على الآلات الموسيقية المختلفة، ومن هؤلاء الطبيب الأندلسي **أبو المجد محمد بن أبي الحكم الباهلي** (ت٥٧٠هـ /١١٧٤م) . نزيل دمشق . الذي كان . إلى جانب إتقانه لعلوم الطب والهندسة والفلك . موسيقيًا مشهورًا، يتقن العزف على آلة العود، ويجيد الغناء والإيقاع والزمر، وله في سائر آلات الطرب يد عاملة، و قد صنع أرغنًا[2] وبالغ في إتقانه[1].

ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٧ / ج ٩ / ١٤٩. ١٥١، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر ص ٢٧٤ وما بعدها .

(١) ابن الشعار : قلائد الجمان مج ٧ / ج ٩ / ١٤٩،١٥٠، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٢)الأرغن: آلة موسيقية نفخية، يونانية الأصل، تعمل من ثلاث زقاق كبار من جلود الجواميس، يضم بعضها إلى بعض، ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير، ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها ثقوب على نسب معلومة، يخرج منها أصوات طيبة مطربة مشجية . مجمع اللغة

ومن الأطباء الذين أتقنوا فنون الموسيقى وأجادوا العزف على آلاتها **أبو زكريا يحيى بن إسماعيل البيَّاسي** (ت٥٧٤هـ/ ١١٧٨م)ولد بمدينة بيَّاسة بالأندلس، ورحل إلى مصر وأقام بها فترة قصيرة، ثم انتقل إلى دمشق فطابت له الحياة فيها فاتخذها دار إقامة، أتقن الصناعة الطبية، وتميَّز في علوم الرياضيات والهندسة والنجارة، وخدم بصناعة الطب صلاح الدين وحظي عنده، وأصبح من أطبائه المقربين الذين رافقوه في حروبه التي خاضها ضد الصليبيين، وإلى جانب هذا أتقن علوم الموسيقى، وأجاد العزف على العود، وقد بلغ إتقانه لصناعة الموسيقى إلى حدٍ جعله خبيرًا بصنع آلاتها، فصنع أرغنًا وحاول العزف عليه، وتصدر في دمشق لتدريسها [٢] .

وكان رشيد الدين علي بن خليفة . عم ابن أبي أصيبعة . (ت ٦١٦هـ /١٢١٩م) . إلى جانب تفوقه في علوم الطب والرياضة . مهتمًا بدراسة الموسيقى، فتتلمذ على ابن الديجور المصري [٣]، واجتمع بأعيان المصنفين في الموسيقى، وأخذ عنهم كثيرًا من تصانيف العرب والعجم، حتى بلغ الغاية وتميَّز على أقرانه في هذا المجال، وصار أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وإجادة الغناء، فكان إذا غنَّى أو لحَّن يأخذ بنفوس وعقول مستمعيه، وقد وصفه ابن أبي أصيبعة [٤] بقوله : " ولم يكن في زمانه من يعرف الموسيقى واللعب بالعود مثله، ولا أطيب صوتًا منه، حتى أنه شوهد من تأثر الأنفس عند

→→→

العربية : المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص ١٤، دوزي : تكملة المعاجم ١/ ١١٦، حاشية ١٦٨.

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٢٨، الذهبي : تاريخ الإسلام ١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٣٧.

(٣) لم أقف على ترجمته فيما رجعت إليه من مصادر .

(٤) عيون الأنباء ص ٧٣٩ .

سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي"[١]، وقد شارك رشيد الدين في التأليف في الموسيقى فألف (مقالة في نسبة النبض وموازنته إلى الحركات الموسيقية)[٢].

ومن الأطباء الذين تميزوا في علم الموسيقى **فخر الدين بن الساعاتي**[٣](ت٦١٨هـ/١٢٢١م)الذي كان . إلى جانب تفوقه في علم الطب والعلوم الحكمية . متقنًا لعلم الموسيقى، جيد العزف على آلة العود، وقد وصف ياقوت تقدمه في علم الموسيقى وأثنى عليه بقوله : " كان خبيرًا بعلم الموسيقى، ويحسن الضرب بالعود، لقيته بدمشق وحضرت مجالسه غير مرة " [٤] اتصل فخر الدين بالمعظم عيسى سلطان دمشق فقرَّبه وولاَّه الوزارة، وجعله من خواصه فكان يسامره ويلعب بين يديه بالعود[٥] .

---

(١) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، أحد مشاهير فلاسفة الإسلام، ولد في فاراب من بلاد خراسان، نبغ في كثير من العلوم، ومن بينها الطب والموسيقى، ويعد من أشهر الأطباء العرب الذي أجادوا العزف على الآلات الموسيقية إلى جانب وضعه المؤلفات الضخمة في فنونها، اتصل بسيف الدولة الحمداني وحظي عنده، توفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ /٩٥٠م . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٠٣ . ٦٠٩، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ١٥٣ . ١٥٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٧٣٦ . ٧٥٠، الصفدي : الوافي ٢١/ ٥٧، ٥٨ .

(٣) هو رضوان بن محمد بن علي بن رستم، طبيب خراساني الأصل دمشقي المولد والوفاة، كان طبيبًا فاضلاً أديبًا شاعرًا، له معرفة تامة بالمنطق والعلوم الحكمية، خدم بصناعة الطب الملك الفائز بن العادل الأيوبي، كما اتصل بالمعظم عيسى فقرَّبه وولاه الوزارة، توفي سنة ٦١٨هـ. ياقوت : معجم الأدباء ٣/ ١٣٠٨، ١٣٠٩، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٦١، ٦٦٢.

(٤) معجم الأدباء ٣/ ١٣٠٨ .

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٦٢، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٨٧ .

وإلى جانب الأطباء اهتم بدراسة الموسيقى بعض علماء الرياضيات والفلك نذكر منهم علم الدين قيصر الأسفوني (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م)[١] الذي كان . إلى جانب تفوقه في العلوم الرياضية والفلكية . مهتمًا بدراسة الموسيقى وتعلمها، ورحل من أجل هذا إلى الموصل، وتتلمذ على شيخها الكمال بن يونس[٢]، وقرأ عليه أكثر من أربعين كتابًا في فنون الموسيقى في مقدار ستة أشهر، والطريف في الأمر أنه كان عارفًا بفنونها متميزًا فيها، وإنما كان غرضه بالرحلة إليه والأخذ عنه الانتساب إلى معلم كبير مشهور في الموسيقى [٣] .

ولم يقتصر الاهتمام بالغناء والموسيقى على الأطباء وعلماء الرياضيات والفلك، وإنما وجدنا من بين الفقهاء ورجال الدين من كان يتقن فنون الغناء والموسيقى، ويجيد

---

(١) هو علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبدالغني الأسفوني، المعروف بتعاسيف، فقيه حنفي ورياضي وفلكي مشهور، ولد بأسفون من صعيد مصر في سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، واشتغل بالقراءات والفقه على مذهب أبي حنيفة، ثم اشتغل بعلوم الرياضيات والفلك وتميَّز فيها على أقرانه، اتصل بالمظفر تقي الدين محمود بن المنصور محمد (ت٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م) صاحب حماه، وحظي عنده وبنى له طاحونًا على نهر العاصي وأبراجا لسور حماه تحيَّل فيها بحيل هندسية، وعمل له كرة من الخشب رسم فيها جميع الكواكب المعروفة في ذلك الوقت، توفي بدمشق سنة ٦٤٩هـ . ابن واصل: مفرج الكروب٥ / ٣٤٣، ٣٤٤، الإدفوي : الطالع السعيد، تحقيق/ سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م، ص٤٦٩ .٤٧١ .

(٢) هو أبو الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة الموصلي، من أشهر علماء الموصل، ولد بها سنة٥٥١هـ/ ١١٥٦م، وأخذ العلم عن والده، ثم رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها، تبحَّر في علوم الفقه والرياضة والمنطق والحكمة والطب والموسيقى، وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، توفي بالموصل سنة ٦٣٩هـ /١٢٤١م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣١١ ـ ٣١٧، السبكي : طبقات الشافعية ٨/ ٣٧٨. ٣٨٦.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان٥ / ٣١٥، ٣١٦، الإدفوي : الطالع السعيد ص٤٧٠ .

الضرب على آلاتها، وقد ذكرنا سابقًا أن قاضي قضاة دمشق شمس الدين الخُوَيِّي (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) كان يجيد اللعب بالقانون ويُغنِّي عليه، وأن المعظم عيسى سلطان دمشق لمَّا سمع به استدعاه إلى مجلس أنسه، ولعب بين يديه بالقانون وغنَّى عليه، ونادمه فأعجبه، وأمره بملازمته في أوقات خلواته ومجالس أنسه [١].

كما برع في مجال الموسيقى والغناء أحد الصوفية الذين قدموا إلى دمشق في هذا العصر، وهو سراج الدين الأرزنكاني(ت٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م) وقد كان كما وصفه اليونيني" بديع زمانه في علم صناعة الموسيقى، يصنف النوب الكاملة " [٢]، وقد ذكرنا سابقًا أنه قدم إلى دمشق في أيام الأشرف موسى وأقام بها، فكان يأتي إلى داره أهل الطرب يتعلمون عليه ويأخذون عنه، وكانت داره بهذه المثابة أشبه بمدرسة للموسيقى والغناء، وقد غادر دمشق بعد وفاة سلطانها الأشرف موسى وانتقل إلى حمص فأقام بها، ثم استدعاه المنصور الثاني صاحب حماة (٦٤٢ . ٦٨٣هـ /١٢٤٤- ١٢٨٤م)[٣]في سنة (٦٥٠هـ/

(١) النويري : نهاية الأرب ٢٩ / ١٧٧، ١٧٨ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ / ٤١١.

(٣) هو ناصر الدين محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولد سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، ولي حكم حماة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م وهو طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره، فتولى الوصاية عليه والدته غازية خاتون بنت الكامل وعدد من الأمراء، مكث في حكم حماة أكثر من أربعين عامًا، كان ملكًا ذكيًا فطنًا، محبًا لآهل العلم، له نوادر ومعرفة تامة بالموسيقى، كان في شبابه كثير اللعب والانهماك في الملذات، ثم تاب قبل وفاته، توفي سنة ٦٨٣هـ. أبو الفدا : المختصر٤/٧٢، ٢٨، المقريزي : المقفى الكبير٧ /١٤٢، ١٤٣، ابن تغري بردي : النجوم ٧ /٣٦٣.

١٢٥٢م)، وأمره بتعليم جواريه وغلمانه الغناء والموسيقى، وجعل له راتبًا على ذلك، فأقام بها إلى سنة ٦٥٨هـ، ثم عاد إلى دمشق فتوفي بها [١] .

ومن هذا العرض يتضح لنا كثرة عدد من احترف الغناء والموسيقى من الجواري والرجال، وإلى جانب هؤلاء الذين احترفوا الغناء والموسيقى وجد عدد لا بأس به من العلماء الذين تميَّزوا في فنون الموسيقى والغناء من الأطباء والفقهاء والصوفية وغيرهم .

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١ /٤١١، ٤١٢ .

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وتسديده تبلغ المقاصد والغايات، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالمعجزات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات. وبعد،،،

أرجو من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن أكون قد ألقيت الضوء على جانب له أهميته في تاريخ المجتمع المصري والشامي خلال العصر الأيوبي، والكشف عن بعض جوانبه التي تلامس مشاعر الناس وتمس أحاسيسهم، وقد حاولت قدر طاقتي أن أستوعب أطرافه، وألم أشتاته المتفرقة، ما وسعني الجهد في ذلك، رغم قلة الإشارات المصدرية وندرتها، وقد تحرَّيت الدقة في كل ما ذكرت من خلال الاعتماد على المصادر الأصيلة، وقد اتضح لي من خلال البحث العديد من النتائج من أهمها:

١ـ أثبت البحث أنه إذا كان لأبناء المجتمع المصري والشامي في العصر الأيوبي تاريخ حافل بآلامهم ومتاعبهم بسبب الظروف القاسية التي مرَّت بها البلاد في هذا العصر؛ والتي نتجت عن الهجمات الخارجية المتمثلة في الحروب الصليبية، والكوارث والفتن والصراعات الداخلية، إلا أن صورة المجتمع في ظل تلك الظروف القاسية لم تكن كلها سوداوية، فهناك جانب مشرق لهذه الصورة، عبر عنه شدو تلك الأصوات التي تغنَّت للحياة وابتسمت لها.

٢ـ أوضح البحث أن الغناء في هذا العصر لم يكن ضربًا من ضروب اللهو والترفيه فحسب، وإنما هو جزء أصيل من حياة الناس المعنوية والمادية لا تستطيع الحياة أن تستغني عنه؛ حيث كان مرتبطًا بكل مناسبةٍ دينية أو سياسيةٍ أو عسكريةٍ أو اجتماعيةٍ.

٣- بيَّن البحث أن صلاح الدين . رغم تدينه وعشقه للجهاد وميله إلى التقشف . إلا أنه لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الذي لا يقعده عن واجب الجهاد والقتال، فكان يحضر في بعض أوقات فراغه مجالس السماع التي كان يقيمها الصوفية، ويستمع إلى الغناء العفيف الذي لا يرى فيه خروجًا على حدود الدين والأخلاق، أو المبادئ والمثل التي يأخذ بها نفسه، وذلك بغرض الترفيه وإدخال السرور على النفس، وطلبًا للراحة من عناء الجهاد ومشقاته، والتحريض على مواصلة الحرب والقتال، وأن حضوره وسماعه كان في الحدود التي تسمح بها مكانته كسلطان عظيم، ملك عليه حبه للجهاد كل عواطفه، وله فوق هذا دين يحميه من السقوط، وخلق ينهاه عن الإسفاف والتبذل .

٤. أثبت البحث أن تدين صلاح الدين وحبه للجهاد لم يحل دون انتشار مجالس الغناء في عهده في مصر والشام، واتخاذها وسيلة من وسائل الترويح عن النفس، فانتشرت هذه المجالس وكانت تعقد في الميادين والساحات، ويحضرها الخاصة والعامة من أجل الترفيه وتزجية أوقات الفراغ .

٥- دلل البحث على أن الغناء والموسيقى في عهد صلاح الدين لم يكونا منتشرين في أوقات اللهو والفراغ فحسب، وإنما كانا مظهرًا من مظاهر الاستعداد للحرب وإشاعة الحماس في نفوس المقاتلين، فكان الغناء والضرب على الدفوف والطبول ضربًا من ضروب التسلية التي كانت تعرض على الجنود في معسكراتهم ليلًا في فترات الاستراحة بعد المعارك الحربية، وفي ساحات المعارك أحيانًا عند توقف القتال؛ بقصد الترفيه وإدخال السرور، وتخفيفًا من عناء الحروب وويلاتها، وتحريضًا للجنود على مواصلة الحرب والجهاد .

٦- أثبت البحث أن خلفاء صلاح الدين من الملوك الأيوبيين سلكوا مسلكًا غير مسلكه، وتخلقوا بأخلاق غير أخلاقه، فكانت نفوسهم تميل نحو الاستمتاع بمباهج الحياة ومتعها وملذاتها، واقتناص أوقات الفراغ والسرور في عقد المجالس العلمية والأدبية

تارة، وفي سماع الغناء تارة أخرى،وقد ساعدهم على ذلك حياة الترف والرخاء التي عاشها الكثير منهم، فأقبلوا على الاهتمام بالغناء ومجالسه، وأعطوه جانبا من اهتمامهم، وقرَّبوا أربابه، واهتم بعضهم بامتلاك الجواري المغنِّيات اللاتي يُجِدْنَ فنون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، وأن هذا الاهتمام لم يقتصر على سلاطين البيت الأيوبي فحسب، وإنما كان لبعض خواتينه اهتمام بامتلاكهن أيضًا.

٧- أوضح البحث أن الاهتمام بالغناء ومجالسه لم يقتصر على سلاطين بني أيوب، وإنما كان لبعض الأمراء والأعيان اهتمام أيضا، وكان لهم مجالس أنس وطرب لا تقل أبهةً وروعةً وبذخًا عن مجالس السلاطين، وليس هذا فحسب بل حرص بعضهم على تعليم جواريهم ومماليكهم فنون الغناء والموسيقى .

٨- أظهر البحث مدى عناية الأدباء واهتمامهم بالغناء؛ وذلك من خلال حرصهم على حضور مجالسه، وإكثارهم من ذكر المغنين والمغنِّيات والطرب وآلاته في شعرهم، مما يُعدُّ انعكاسًا صادقًا لاهتمامهم وعنايتهم بسماع الغناء ومجالسه نظرًا وسماعًا، وأن إقبالهم على سماع الغناء لم يكن بهدف التسلية والترويح، وتزجية أوقات الفراغ فحسب، وإنما كان إقبال المتذوقين الدارسين، فهم كما كانوا يستحسنون كانوا يستهجنون، وكما كانوا يستجيدون كانوا يستقبحون، وأن اهتمامهم بالغناء لم يقتصر على مجرد سماعه وحضور مجالسه، وإنما جمع بعضهم بين قرض الشعر والغناء .

٩- أوضح البحث مدى إقبال العامة في مصر والشام على سماع الغناء والموسيقى، على الرغم من الظروف الصعبة والأحداث العظيمة التي مرُّوا بها، وقد شجعهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من حياة آمنة في كثير من الأحيان، وتوافر أماكن اللهو والنزهة، وأن دور العامة لم يقتصر على مجرد سماع الغناء، وإنما شارك بعضهم في الغناء والتلحين، فكان للباعة الجائلين غناءهم الخاص الذي يروجون به لسلعهم، كما اتخذ

العامة من الغناء وسيلة عبَّروا بها عن سخريتهم وسخطهم من تصرفات بعض الحكام والأمراء .

١٠ـ أثبت البحث أن مصر والشام قد عرفتا الكثير ممن احترفوا الغناء والموسيقى من الجواري والرجال على السواء، وأن عدم اهتمام المصادر المعاصرة بالترجمة لهم لا يعني عدم وجود هذه الفئة من المجتمع، وإنما يرجع إلى اهتمام المؤرخين المعاصرين بتناول الأحداث السياسية والعسكرية، وغلبة الروح الدينية على كثير من هؤلاء المؤرخين، وجريًا على عادتهم بعدم إفراد تراجم لهذه الفئة ومن يرونه منحرفا أو متحررًا من عادات المجتمع وقيمه وتقاليده .

١١ـ أكد البحث وجود عدد كبير من العلماء الذين تميزوا في فنون الغناء والموسيقى من الأطباء والفقهاء والصوفية، الذين أتقنوها حبًا فيها، ومن أجل الترفيه وتزجية أوقات الفراغ والراحة، الأمر الذي يدل على أهمية فنون الغناء والموسيقى حتى استهوت هذا العدد الكبير من العلماء من أصحاب المهن الأخرى ليبدعوا فيها، وهي ميزة تفرَّدت بها الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى .

وفي ختام هذا الجهد المتواضع أدعو الله ﷻ أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت المصـادر والمراجـع

. القرآن الكريم.

أولا . المصادر المطبوعة:

***الإبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)**

١. **المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق / إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، د. ط . ت .**

***ابن الأثير: (عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م)**

٢ـ الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، راجعه / محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، بيروت . لبنان ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

***الإدفوي : (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)**

٣ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق/ سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

***ابن أبي أصيبعة : (أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م)**

٤. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥ م.

***الأنطاكي: (يحيى بن سعيد بن يحيى ت ٤٥٨هـ /١٠٦٥م)**

٥. تاريخ الأنطاكي المعروف بـ (صلة تاريخ أوتيخا)، تحقيق / عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس، طرابلس . لبنان ١٩٩٠م .

***ابن أيبك الدواداري: (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ت بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)**

٦ـ كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب) تحقيق / سعيد عبد الفتاح عاشور، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م.

***البنداري: (الفتح بن علي بن محمد ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م)**

٧ـ سنا البرق الشامي، اختصار كتاب (البرق الشامي) للعماد الأصفهاني، تحقيق / فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩ م .

*** البهاء زهير: (أبو الفضل زهير بن محمد بن علي ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م)**

٨- ديوان البهاء زهير، تحقيق / محمد أبوالفضل إبراهيم، محمد طاهر الجبلاوي، سلسلة ذخائر العرب ٥٣، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٢م .

*** ابن تغري بردي: (أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م)**

٩النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣م.

*** تميم بن المعز: (أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن المهدي ت ٣٧٤هـ/٩٨٤م)**

١٠- ديوان تميم ، تحقيق/ محمد حسن الأعظمي، مراجعة/ أحمد نجاتي، محمد علي النجار، محمد كامل حسين، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة١٣٧٧هـ /١٩٥٧م .

*** ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م)**

١١- رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك المعروف بـ (رحلة ابن جبير) منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت . لبنان ١٩٨١ م .

***ابن حجة: (أبو بكر بن على بن محمد ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م)**

١٢- ثمرات الأوراق، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

*** الحميدي: (أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله ت ٤٨٨هـ /١٠٩٥م)**

١٣- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق/ بشار عواد معروف، محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، تونس ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

*** الحنبلي: (أحمد بن إبراهيم الحنبلي ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م)**

١٤. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق / مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م .

*** ابن الخطيب: (لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)**

١٥ـ الإحاطـة فـي أخبـار غرناطـة، تحقيـق / محمـد عبـدالله عنـان، الطبعـة الأولـى، مكتبـة الخانجي، القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

***ابن خلكان: (شمس الدين أحمد بن محمد الإربلي ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)**

١٦. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق / إحسان عباس، دار صادر، بيروت١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

*** ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م)**

١٧ـ الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق/ سعيد عاشور، مركز البحث العلمي وإحياء التراث كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى، السعودية١٩٨٢م.

١٨ـ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق / سمير طبارة، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م .

*** الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤م)**

١٩ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المجلدات ١٢، ١٣، ١٤، تحقيق / بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

٢٠ـ سير أعلام النبلاء ج ٢١، تحقيق / بشار عواد معروف، محيى هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

*** ابن رجب: (عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م)**

٢١ـ الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق / عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٥م .

*** ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)**

٢٢ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، بيروت لبنان، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

*** ابن الزبير: (القاضي الرشيد بن الزبير توفي في القرن الخامس الهجري)**

٢٣. الذخائر والتحف، تحقيق / محمد حميد الله، الكويت ١٩٥٩م .

***ابن الساعاتي : (أبو الحسن علي بن محمد بن رستم الخراساني ت ٦٠٤ هـ /١٢٠٧م)**

٢٤. ديوان ابن الساعاتي، تحقيق / أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت ١٩٣٨م .

*** سبط ابن الجوزي : (أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبدالله ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)**

٢٥ـ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ج ٢١، ج٢٢، تحقيق / إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م .

***السبكي : (تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبد الكافي ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)**

٢٦ـ طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ج ٨، تحقيق / محمود محمد الطناحي، عبدالفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٧١م .

*** ابن سعيد المغربي: (أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)**

٢٧. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، سلسلة ذخائر العرب رقم ١٤، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ .

٢٨. المُغْرب في حُلى المَغْرِب، القسم الخاص بالفسطاط (الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط)، تحقيق / زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة إسماعيل الكاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٨م.

٢٩ـ المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق/ سيد حنفي حسنين، الذخائر١٢٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.

٣١ـالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب(المغرب في حلى المغرب) تحقيق / حسين نصار، مطبعة دار الكتب١٩٧٠ م .

*** ابن سناء الملك:(هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ت ٦٠٨هـ / ١٢١١ م)**

٣١ـ ديوان ابن سناء، تحقيق/ محمد إبراهيم نصر، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩ م .

*** السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)**

٣٢. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م.

***أبو شامة: (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)**

٣٣ـ ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) تحقيق / السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٤م .

٣٤ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، خمسة أجزاء، تحقيق / إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م .

*** ابن شاهنشاه:(محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠ م)**

٣٥. مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق / حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨م.

***ابن شداد: (أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)**

٣٦. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق / جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م .

***ابن الشعار الموصلي : (كمال الدين أبي البركات المبارك ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م)**

٣٧ـ قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بعقود الجمان في شعراء الزمان، تحقيق / كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م .

*** الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)**

٣٨ـ أعيان العصر وأعوان النصر، ج ١ تحقيق / علي أبو زيد وآخرون، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

٣٩ـ الغيث المسجم في شرح لامية العجم،، المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى ١٣٠٥هـ.

٤٠ـ الوافي بالوفيات، تحقيق / أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

*** الصقاعي : (فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي ت ؟)**

٤١. تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق/ جاكلين سوبلة،المعهد الفرنسي بدمشق١٩٧٤م .

*** ابن الصيرفي : (أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الكاتب ت٥٤٢هـ/١١٤٧م)**

٤٢ـ الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق / عبدالله مخلص، مقتطف من مجلة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، المجلد ٢٥، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٢٤م .

*** ابن ظافر : (أبو الحسن علي بن ظافر بن حسين الأزدي ت ٦١٣ هـ /١٢١٦م)**

٤٣ـ بدائع البدائه، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

*** ابن عبد الظاهر: (محي الدين عبدالله بن عبد الظاهر المصري ت ٦٩٢ هـ/١٢٩٢م)**

٤٤ـ الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق/ أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٦م .

*** ابن العديم: (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م)**

٤٥. بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق / سيهل زكار، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ .

٤٦. تذكرة ابن العديم، تحقيق / إبراهيم صالح، الطبعة الأولى، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبوظبي ١٤٣١م/٢٠١٠م .

٤٧. زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق / خليل المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

*** ابن العماد: (أبو الفلاح عبدالحي أحمد بن محمد ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨ م)**

٤٨ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مجلد ٧ تحقيق / عبدالقادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دمشق . بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

*** العماد الأصفهاني: (محمد بن محمد بن عبدالله بن علي ت٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)**

٤٩ـ حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس المسمى بـ (الفتح القسي في الفتح القدسي)، دار المنار، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م.

٥٠. خريدة القصر وجريدة العصر (بداية قسم شعراء الشام)، تحقيق / شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، (قسم شعراء الشام) ج ١،ج ٢، تحقيق/ شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م، (قسم شعراء مصر)، تحقيق / أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهر ١٤٢٦ هـ . ٢٠٠٥ م، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٥١ م .

***العمري : (شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)**

٥١ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١٠، ج ١٦، ج ١٨،٢٧، تحقيق / كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٠ م .

*** ابن العميد (المكين جرجس بن العميد أبي ياسر بن أبي المكارم ت ٦٧٢ هـ /١٢٧٣م)**

٥٢. أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

*** العيني : (بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)**

٥٣ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي) تحقيق / محمود رزق محمود، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٣١ هـ /٢٠١٠ م.

*** فتيان الشاغوري : (أبو محمد فتيان بن علي الأسدي ت ٦١٥هـ / ١٢١٨م)**

٥٤. ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق / أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٧٦م .

*** أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)**

٥٥ـ المختصر في أخبار البشر، ج ٣، تحقيق / محمد زينهم محمد عزب، يحيى سيد حسين، سلسلة ذخائر العرب رقم ٦٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩ م.

***ابن الفرات: (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م)**

٥٦ـ تاريخ ابن الفرات، مجلد ٥ ج ١ حوادث ٦٠٠ . ٦١٥، تحقيق / حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، البصرة ١٩٧٠م .

*** القاضي الفاضل : (عبدالرحيم بن علي البيساني ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩)**

٥٧. ديوان القاضي الفاضل، تحقيق/ أحمد أحمد بدوي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦١م.

*** القزويني : (زكريا بن محمد بن محمود القزويني ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)**

٥٨. آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

***القفطي : (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م)**

٥٩. انباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .

***القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)**

٦٠ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الأجزاء ٢،٤، دار الكتب المصرية، القاهرة١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م.

***الكتبي : (محمد بن شاكر الكتبي ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)**

٦١ـ فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٣م.

*** ابن كثير: (أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ / ١٢٧٢ م)**

٦٢ـ البداية والنهاية ج ١٦، ج ١٧، تحقيق / عبدالله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

*** المقري : (أحمد بن محمد المقَّري التلمساني ت ١٠٤١ هـ / ١٧٢٨ م)**

٦٣ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيبج٢، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

*** المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)**

٦٤. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٢، ج٣، تحقيق / محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،القاهرة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

٦٥ـ السـلوك لمعرفـة دول الملـوك ج ١ ق١، ق ٢، تحقيـق / محمـد مصـطفى زيـادة، لجنـة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦م.

٦٦ـ المقفى الكبير، ٨ أجزاء، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م .

٦٧. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ (الخطط المقريزية)، تحقيق / محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨ م .

***ابن منظور: (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ت ٧١١هـ / ١٣١١م)**

٦٨. لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ .

*** ابن النبيه: (كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن ت ٦١٩هـ / ١٢٢٢م)**

٦٩. ديوان ابن النبيه، تحقيق/ عمر محمد الأسعد، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق١٩٦٩م .

*** ابن نظيف الحموي : (أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز ت ق ٧ هـ/ ١٣م)**

٧٠. التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) تحقيق / أبو العيد دودو، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الحجاز، دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

*** النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م)**

٧١ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨، ٢٩، تحقيق / نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٤ هـ /٢٠٠٤ م .

*** ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم الحموي ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م)**

٧٢ـ التاريخ الصالحي، تحقيق / عمر عبد السلام تدمري،المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م .

٧٣ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ج٢، ج٣ تحقيق / جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م،١٩٦٠م، ج٤، ج٥ تحقيق / حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢م، ١٩٧٥م، ج ٦ تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٥/٢٠٠٤م .

*** ياقوت : (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)**

٧٤ـ معجم الأدباء(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق / إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٤ هـ /١٩٩٣ م .

٧٥. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ .

*** اليونيني : (قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد البعلبكي ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م)**

٧٦. ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، الهند ١٣٧٤هـ /١٩٥٤ م .

ثانيا. المصادر الأجنبية المعربة :

***وليم الصوري**

٧٧ـ الحروب الصليبية ج٤، ترجمة/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م .

ثالثا . المراجع العربية والأجنبية المعربة :

*** أحمد أحمد بدوي (دكتور)**

٧٨. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، بدون تاريخ .

*** أحمد تيمور باشا .**

٧٩. الموسيقى والغناء عند العرب، نشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ٢٠٢٢م .

*** أحمد رمضان أحمد (دكتور)**

٨٠. المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٧م .

*** حسن حلاق، عباس صباغ**

٨١ـ المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٩م .

***حسن شميساني (دكتور)**

٨٢ـ مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار الآفاق الجديدة، ط ١، بيروت ١٩٨٣م .

*** حسين على محفوظ (دكتور)**

٨٣ـ معجم الموسيقى العربية، مطبعة دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٤م .

***دوزي: (رينهارتدوزي ت ١٨٨٣م)**

٨٤ـ تكملة المعاجم العربية ، ترجمة/ محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨٠م .

*** س . موسترس**

٨٥ـ المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة / عصام محمد الشحادات، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

*** سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)**

٨٦ـ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٩، القاهرة ٢٠١٠م .

٨٧ـ مصر في عصر دولة المماليك البحرية، سلسلة الألف كتاب، العدد ٢٢٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م .

*** سوفاجيه**

٨٨ـ دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦ م .

*** عبد الحكيم العفيفي**

٨٩ـ موسوعة ألف مدينة إسلامية، أوراق شرقية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢١هـ /٢٠٠٠ م .

*** عبدالعزيز صلاح سالم (دكتور)**

٩٠ـ الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي،ج١ التحف المعدنية، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٩م .

*** . عبد المنعم عبد الحميد سلطان (دكتور)**

٩١ـ الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية)، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ١٩٩٩م .

*** عمرو موسى باشا (دكتور)**

٩٢ـ الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، الطبعة الثانية، دمشق١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م .

***قتيبة الشهابي (دكتور)**

٩٣ـ معجم دمشق التاريخي للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٩م .

*** لطفي أحمد نصار (دكتور)**

٩٤ـ وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تاريخ المصرين، العدد (١٤١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م .

***مجمع اللغة العربية**

٩٥. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

*** محسن محمد حسين (دكتور)**

٩٦. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين تركيبه . تنظيمه . أسلحته . بحريته . وأبرز المعارك التي خاضها، مطبعة وزارة التربية، أربيل ٢٠٠٣ .

***محمد إبراهيم نصر (دكتور)**

٩٧ـ ابـن سـناء الملـك، سلسـلة أعـلام العـرب عـدد(٩٦)، الهيئـة العامـة للتـأليف والنشـر، القاهرة١٩٧١م.

*** محمد أحمد دهمان**

٩٨ـ معجـم الألفـاظ التاريخيـة فـي العصـر المملـوكي، دار الفكـر المعاصـر، بيـروت ١٤١٠هـ /١٩٩٠م .

*** محمد رمزي**

٩٩. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، ق٢، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م .

*** محمد زغلول سلام (دكتور)**

١٠٠. الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الطبعة الثالثة، الإسكندرية ١٩٩٠م .

***مركز الدراسات العسكرية**

١٠١ـ المعجـم الجغرافـي للقطـر العربـي السـوري، إعـداد مجموعـة مـن البـاحثين، إشـراف العمـاد مصطفى طلاس الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٢م .

*** نبيل محمد عبد العزيز (دكتور)**

١٠٢. الطرب وآلاته في عصري الأيوبيين والمماليك، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠.

*** نظير حسَّان سعداوي (دكتور)**

١٠٣. جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦ م .

رابعا . الأبحاث والرسائل العلمية :

*** حسن أحمد عبدالجليل البطاوي (دكتور)**

١٠٤ـ الضـمان فـي مصـر المملوكيـة، حوليـات آداب عـين شـمس، المجلـد٣٧(يوليـو . سبتمبر٢٠٠٩م).

*** عبد الخالق على عبد الخالق الشيخة (دكتور)**

١٠٥. الخزف الإسلامي في العصر الأيوبي في مصر والشام في ضوء مجموعات جديدة دراسة أثرية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآثار، جامعة القاهرة ٢٠٠٦.

*** مفلح ضبعان الحويطات (دكتور)**

١٠٦. شعر الهجاء في مصر والشام زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤته ١٩٩٩م.